

أحمد بن حنبل

وَأَنْتِصَارُ الدِّينِ عَلَى الدُّوَلَةِ

ذكرنا كيف هانت الدماء على خلفاء بنى العباس . وكيف أهدرت الحقوق وصودرت الأموال وخرجت السياسة بالخلفاء ورجالهم عن الخط الإسلامى جملة وتفصيلاً ، والخط الإسلامى هو منهج الله فى الناس والخلق ، إنه الإيمان والاعتصام بحبل الله - أى وحدة الأمة - والعدل فى التصرف والحكم ومراعاة الله سبحانه واتباع سنة رسول الله ﷺ فى العبادات والمعاملات .

وقد ضربنا مثلاً من امتهان الخلفاء لكل قواعد الحق فى الإسلام بما فعله الرشيد بالبرامكة . ونحن لم نقل إن البرامكة كانوا أبرياء صلحاء فى كل عملهم ، ولكننا قلنا : إنه مهما كان رأى الخليفة فيهم وشكهم فى صدقهم وأمانتهم وتفكيره فى محاسبتهم فقد وضع الإسلام لذلك كله قواعد وضوابط ، فهناك شرع وقضاء ، ورسول الله ﷺ وضع للناس السنن فى صيانة النفس والمال ، وكان عبد الله بن أبى بن سلول والجذ بن قيس من رءوس المنافقين ، وكانا يسيئان لرسول الله ﷺ والمسلمين ولكنهما لم يجاهرا بعضيان أو ارتداد ، فحفظهما رسول الله ﷺ ولم يمسسهما بأذى فى نفس أو مال . وأسامة بن زيد بن حارثة اشترك فى سرية ، وقتل رجلاً بعد أن قال : لا إله إلا الله . ورسول الله يسأله فى ذلك فيقول : تعوذ بها من القتل . ويقول له الرسول الأكرم : هلا شققت قلبه ؟ أى : ما أدراك إن كان صادقاً أم غير صادق ؟

ولكن الرشيد لا يحقق أو يدقق ، ولا يرجع إلى قاض أو فقيه بل هو يقتل ويسجن ويصادر الأموال ، وقاضيه أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم لا يعترض . ولا يبدي أدنى ملاحظة ، وأبو يوسف من أعظم الفقهاء ، وأوسعهم علماً ، ولكنه كان من فقهاء الدولة وفقهاء الدولة جزء من النظام وهو مشترك - ضمناً - مع خليفته فى المسئولية عما كان .

ومضى هارون الرشيد إلى حال سبيله فى الثامنة والأربعين من عمره ، توفى بعد علة طويلة فقد كان يعانى من الفتق أو الهرينا . وأغلب الظن أنه مات من اشتداد علة السكر . وجاء ابنه الأمين وكانت سيرته - مهما قلنا فى مبالغات المؤرخين فى تشويهها -

خارجة عن سنن الإسلام وأخلاقه جملة ، وقد التمسنا له العذر لصغر السن ، فقد كان في الغالب في الحادية أو الثانية والعشرين من عمره ، وحمل على كتفيه مسئولية دولة عظمى ، وضاع أمر المسكين في صراع السلطان في بلاط بنى العباس بين الحزبين العربي والفراسى ، والحزب العربي كان ضعيفاً مفككاً يرأسه الفضل بن الربيع بن يونس - وهو منولى عربى - ولكن ممثله الحقيقى كان هرثمة بن أعين ، وكان من كبار القادة والحكام ، ولكن الفضل بن الربيع يهمله ويسىء إليه فينضم الرجل إلى الحزب الفارسى طمعاً في أن يستطيع إنقاذ الأمين من سيف طاهر بن الحسين الفارسى وهو قائد المأمون . ويدخل جند المأمون بغداد ويأخذ هرثمة بن أعين الأمين ، ويحميه ويرجو أن يشفع له عند أخيه ، ولكن طاهر بن الحسين يأمر رجاله فيخطفون الأمين ويقتلونه ويرسلون برأسه إلى أخيه المأمون ، وكل هذه أعمال خارجة عن الإسلام والإنسانية والكرامة ، وجمهور الناس يرى ذلك كله ويتأكد أن هذه الدولة لا يمكن أن تكون دولة الإسلام ، وماذا فعل فرعون وهامان أسوأ من ذلك ليستحقا لعنة الله ؟

والمأمون يدخل بغداد بعد ست سنوات من انتصاره ، يدخلها بعد حصار وهو يشعر أن أهلها يعادونه وتكون له هو الآخر في الظلم والعدوان على الدماء والأموال حكايات سود ، ولا يشفع له في هذا أنه كان عالماً ذكياً متفتح الذهن ، فهذا شىء آخر والأمة لا تريد من حاكمها إلا الإسلام والعدل والشريعة أى القانون .

وسأضرب لك مثالين - من كثير جداً - من خروج المأمون على أبسط قواعد العدالة والشرع في الإسلام ، فإن عبد الله المأمون فيما يقال وجد أن آل على أولى بالخلافة من بنى العباس . فقرر أن يجعل ولاية العهد في رجل من أئمة العلويين هو على بن موسى الرضا بن الإمام جعفر الصادق ، وعلى هذا كان رجلاً بعيداً عن السياسة قد يئس منها مثله في ذلك مثل أبيه موسى الرضا وجده جعفر الصادق فاستدناه المأمون وأكرمه وباعه بولاية العهد ، والرجل كاره لذلك خائف من بنى العباس يريد المأمون أن يزيده اطمئناناً فيزوجه من ابنته أم حبيبة ، ويزوج ابنة أخرى له وهى أم الفضل من محمد ابن على بن موسى الرضا (وكلتا البننتين كانتا صبيتين في حوالى الثمانية من العمر) ! والزواج عقد ولكنه لم يتم ؛ لأن الأمر كله كان خداعاً ، ويأمر المأمون فيكتب اسم ولى العهد العلوى على الدراهم والدنانير ويأمر الخطباء أن يدعوا له على المنابر ، وبعد ذلك

كله يدس لعلى بن موسى الرضا السم ويقتله ظلماً وعدواناً دون جريرة ويعصف ببقية العلويين الذين استأمنوا له ، ففي أية دولة نحن ؟ وبأى شريعة نحكم ؟

وبعد ذلك يتزوج المأمون من بوران ابنة الحسن أخى وزيره الفضل بن سهل ، والذى لا يعرفه الناس أن بوران هذه كانت طفلة فى الرابعة من عمرها ! وهذا الإغذار أو الزفاف البورانى المشهور كان كله خدعة ، وتغطية لجريمة كبيرة هى قتله وزيره الفضل بن سهل زعيم الحزب الفارسى أخى الحسن بن سهل والد بوران ، ثم انظر إلى الإسراف فى التصرف فى أموال المسلمين فى ذلك الإغذار أو الزفاف : لقد صنع الحسن بن سهل كرات صغيرة من العنبر وجعل داخل كل كرة ورقة فيها اسم ضيعة من الضياع ثم نثرها على الناس فمن وقعت بيده كرة كانت له الضيعة بما فيها ، ومن مال من أخذ الحسن بن سهل هذه الضياع ؟ من مال المسلمين ! ويقولون : إن المأمون لأمه فى هذا ونسبه إلى الإسراف ولتسأل المأمون : وكيف تأذن بأن يعبث رجالك بأموال الناس على هذه الصورة فى حكمك ؟ والجواب : إن هذا كله كان يتم برضا المأمون ، لأن الدولة كانت بالفعل قد فقدت أهليتها للولاية على أمور المسلمين . فهذا الإسراف كله الذى يصل إلى أن يفرش الحسن للمأمون حصيراً منسوجاً من الذهب وينثر عليه ألف لؤلؤة من كبار اللؤلؤ فلما رآه المأمون قال : قاتل الله أبا نواس ! كأنه شاهد مجلسنا هذا حيث يقول :

كان صغرى وكبرى من فقاقتها حصباء در على أرض من الذهب

والبيت قاله أبو نواس فى الخمر (ابن خلكان ١ / ٧٢) وفى هذا العصر بالذات كان الفقراء يموتون من الجوع ، واقرأ البخلاء والبيان والتبيين للجاحظ ، وتاريخ الطبرى لترى كيف كان الفقراء يطعمون أولادهم النوى ، ويرقد بعضهم على البيض ليفقس .. وفى عصر المأمون كانت ثورة الزُّطِّ ، وهم مسلمون فقراء من الهنود كانوا يأتون بهم إلى جنوب العراق ليكسحوا الأوساخ ، وينظفوا الترع فإذا قاموا بعملهم طردوهم دون طعام أو مأوى ، فكانوا يتجمعون فى المستنقعات والأخوار ويسطون على أموال الناس وبدلاً من أن ينظر الحكام فى إصلاح حالهم أو يطلبوا من الأغنياء أن يعدلوا معهم كانوا يرسلون الجند ليقتلوهم ، ولنفس هذه الأسباب قامت ثورة الزنج أيام الخليفة المعتمد ، وبدلاً من أن يعطوهم حقوقهم ظلوا يحاربونهم أربعة عشر عاماً حتى أفنوهم .

هذا كله كان يراه أنقياء الفقهاء ويتعجبون . كانوا يقبلون على تدارس القرآن

والحديث ويجتهدون في التشريع للناس ويعملون على هدايتهم إلى سواء السبيل تاركين دولة الظلم تفعل بنفسها وبأهلها ما تشاء ، وفي مجالس الفقهاء ينتقد الناس الدولة ورجالها والأخبار تصل إلى المأمون ورجاله يحسون أنهم ليسوا سادة هذه الأمة ؛ لأن سيادة الأمة ينبغي أن تقوم على احترام الدين والشرع وكرامات الناس ، ويتبرأون من أفاعيل الخلفاء ، وهل هناك أوقح أو أقبح من أن المأمون دس رجالاً فقتلوا وزيره الفضل بن سهل في الحمام؟! فلما قبض الناس عليهم قالوا للمأمون : أنت أمرتنا . فقال : أنا أقتلكم بإقراركم أما ما ادعيتموه على فليس لكم عليه بينة (رواه الأستاذ عبد الحليم الجندى في كتاب أحمد بن حنبل ص ٣٤٠) .

وأحس المأمون أن سادة الأمة الحقيقيين هم أهل الفقه والعلم والصلاح ، ويهمس في أذنه فقهاؤه وقضاته أمثال يحيى بن أكثم وبشر المريسى وثمامة بن أشرس بأنه لا بد أن يثبت أنه إمام هذه الأمة كلها ويقهر أولئك الذين يرفضون أن تتدخل الدولة في شئون العقيدة والتشريع ويعتزون بكراماتهم وإيمانهم ويتجاهلون أمر الدولة كأنها لا تملك عليهم سيادة ، وفقهاء السلطان هؤلاء كانوا يستعملون السلطان للانتقام من كبار الأئمة ومعظمهم كانوا من أولئك المعتزلة الذين ذكرناهم ، ومن الحق أن نقرر أن كبار المعتزلة من رجال مدرسة البصرة أمثال واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد وأبى الهذيل العلاف كانوا على جانب كبير من التقى والورع مع العلم والزهادة ، ولكن المتكلمين من مدرسة بغداد عاشوا في كنف الدولة وأقروا مظالمها وارتضوا الخضوع لها باستثناء إبراهيم بن سيار النظام فقد كان صاحب دين وعقل وعلم ، وإن كان من أصحاب المأمون ، وإن الإنسان ليعجب كيف أن رجلاً في مستوى النظام ينفق علمه في الكلام في مسائل دخيلة على طبيعة العقيدة الإسلامية مثل السؤال عما إذا كانت صفات الله جزءاً من ذاته أو أن القرآن قديم أو مخلوق ، ولكن لا شك في أن رجلاً مثل أبى موسى المرادار وثمامة بن أشرس وبشر بن المعتمر كانوا يشعرون أن الناس يزدرونهم ويشكون في إيمانهم ويوجهون احترامهم كله إلى العلماء الصادقين من أمثال أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وأحمد بن زهير بن حرب .

فما زالوا يحرضون المأمون حتى أوقعوا في ذهنه أن أئمة السنة يتحدونه واتخذوا مسألة خلق القرآن سلاحاً للمعركة ، والمسألة في لبابها ليست بذات موضوع بالنسبة

للمسلم الذى يفهم دينه فإننا نقول : إن القرآن كلام الله ولا نسال بعد ذلك إن كان مخلوقاً أم غير مخلوق ؛ لأننا إذا دخلنا مناطق الخلق والقدرة وذات الله وصفاته أقحمنا أنفسنا فى موضوعات من الغيب الذى انفرد به سبحانه وتعالى ، لأن الكون والخلق أضخم من أن يحيط عقل الإنسان بحدوده ، والإسلام أنقذ الإنسان من الضلال عندما نهاه عن الخوض فيما لا يحيط به ذهنه ولا يضيره عدم الإحاطة به فى شىء حقاً إن الاجتهاد فى العلم فريضة على كل مؤمن ولكن لا تتكلم قط إلا على قدر ما يصل إليه علمك ، فنحن نعرف اليوم كثيراً جداً من أسرار الأرض والمجموعة الشمسية ، ولكننا لا نعلم إلا القليل مما يقع خارج مجموعتنا ، فما معنى التساؤل والرجم بالغيب ؟ والقرآن أوحى إلى رسول الله ﷺ ليبلغه لنا لنعيش بما فيه من حكمة ونور ، ولا ينفعنا فى شىء ، ولا هو من شأننا أن نسال : ولكن ما هى ماهية نور الله ؟ وهل هو نور مثل هذا الذى نراه أو نور آخر ؟ وما معنى أن نسال : كيف يستوى الله على العرش ؟ وما شكل عرش الله ؟ وما صورة يد الله الواردة فى قوله تعالى : ﴿ يد الله فوق أيديهم ﴾ ؟ وما دمننا نقول : إن الله سبحانه ليس كمثل شىء فتكون يد الله ليس كمثلها يد وكرسى الله ليس كمثل كرسى مما نعرف وعين الله لا تشبهها عين نعرفها ، ويكفي أن نتبع هدى القرآن وأن نأخذ بما فى الآيات المحكمات وندع المتشابهات وهذا كان موقف أحمد بن حنبل ، فقد كان متباعداً عن هذه القضايا ويأمر أصحابه بتجنبها ، ويقول لمن يسأله فى هذا الموضوع : « اتق الله ولا ينبغى أن تنصب نفسك وتشتهر بالكلام . لو كان فى هذا خير لتقدمنا فيه الصحابة ، هذه كلها بدعة » وكان كثيراً ما يقول : « من أحب الكلام لم يفلح ولا يثول أمرهم إلى خير » أو « والكلام ردىء لا يدعو إلى خير تجنبوا أهل الكلام وعليكم بالسنن ، وما كان عليه أهل العلم قبلكم فإنهم كانوا يكرهون الكلام والخوض مع أهل البدع ، وإنما السلامة فى ترك هذا . لم تؤمر بالكلام والخصومات . »

وكان الخليفة المأمون يشعر منذ دخل بغداد سنة ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م ، أن أهل البلد وعامتهم لا يوقرونه كما يجب ، وأن قلوبهم كلها مع أهل العلم ممن لا يفرقون بين كبير وصغير وينشرون علمهم فى الناس كافة ، وكان مجلس أحمد بن حنبل يحفل بالناس والكثير منهم من العوام أقبلوا ليستمعوا إليه ، وسواء فهموا عنه أو لم يفهموا فهم يتعظون بالقدوة وينتفعون برؤية رجل كهذا لا نظير له فى الدنيا علماً وفقهاً وجاهاً ومع ذلك فإنه يجلس إلى غيره من العلماء ويسمع منهم ويبلغ من تواضعه أنه استحى مرة

أن يجلس على حصير وهو يسمع حديث رسول الله ﷺ فرفعه وجلس على الأرض ، وكان يجلس في بيته على لبد قديم رخيص ، ويلبس الثياب الغلاظ مما يشتري بدينار أو نحوه ، وكان مع ذلك في الغاية من النظافة وحسن السمات ، وكان إذا رأى اليتيم الفقير أخذه وجعل بعض أصحابه يغسله ويشترى له ثياباً جددًا ويعطيه دراهم وحلوى ويطلب إليه أن يأتيه إذا حاجه أمر ، ووقعت في بغداد مجاعة فامتنع أحمد عن الطعام إلا ما يقيم الأود ، وسئل في هذا فقال : نجوع إذا جاع الناس ونطعم إذا طعم الناس . وكان الرجل أسمر شديد السمرة أميل إلى الطول وكان حسن الوجه حسن الإشارة خفيض الصوت ، وفي الليالي الشتائية الباردة كان يحمل ما تيسر له من الأكسية إلى بيوت الفقراء ويكي ويقول : أبكى على فقراء أمة محمد فأين هذا من قول ثمامة بن أشرس في مجلس المأمون : « وما العامة ؟ والله لو وجهت إنساناً على عاتقه سواد ومعاه عصا لساق إليك بعضاه عشرة آلاف منها » وقد سواها الله بالأنعام فقال : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ (الفرقان ٤٤ / ٢٥) أحمد أمين (ضحى الإسلام ٣ / ١٥٢) وهو هنا مدلس ؛ لأن الله سبحانه قال هذا الكلام في كبار كفار قريش وكانوا سراة الناس !

ولكن هذا الكلام كان يعجب المأمون ، لأنه هو بدوره كان موتوراً من عامة الناس الذين رفضوا أن يفتحوا له أبواب مدينتهم عندما أقبل من خراسان ، وإذا كان هذا الموقف من العامة يصدر عن سخافة الفكر عند رجل مثل ثمامة بن أشرس ، فقد كان يصدر عن موقف سياسى عند المأمون ، وعندما يتوفى القاضى يحيى بن أكثم ويتولى قضاء بغداد أحمد بن أبى دُواد وكان من كبار المعتزلة ، ويأنس منه المأمون استعداداً لمؤازرته على بسط سلطانه على جمهور الناس وأئمة المسلمين يكشف عن وجهه ، وتخرج المسألة عن نطاق الدين وتصبح سياسية خلاصتها : من صاحب الأمر في دولة الإسلام ؟ الأمة وقادة الأمة أم الخليفة ورجاله ؟ الكتاب أم السيف ؟

إذن فمسألة خلق القرآن في حقيقتها مسألة سياسية وهذا هو وجهها الذى خفى عن الكثيرين .

والخليفة المأمون عندما دخل في المسألة دخلها على أنها مسألة سياسة وسيادة ، فهو الخليفة وصاحب السيادة على هذه الدولة وكل ما فيها ومن فيها ، وهو الذى يهيمن

على شئون الدين والدنيا ، وهو الشرع وممثل الشرع ، وليس من حق أحد من الرعية أن يشرع أو يفتى إلا بإذنه .

وأحمد بن حنبل عندما قبل التحدى وخاض المعركة في مواجهة الخليفة كان يعرف أنها مسألة شريعة ، وخاضها على هذا الأساس وإن كان هو نفسه بعيداً عن السياسة ، ولكن المسألة هنا مسألة سيادة القانون أو الشرع ، والشرع هو سيد كل ما في هذه الدولة ابتداء من الخليفة ، والشرع أمانة عند أهل العلم والفقهاء ومسئوليتهم هنا كاملة ولا شك فيها ، والخليفة – في نظر الشرع – واحد من الرعية ، وسلطانه لا يجوز أن يتخطى الشريعة .

هذا الوضع الضخم للمسألة هو الذى يعطينا حجمها ، وأحمد بن حنبل هو الذى أعطاها هذا الحجم ، وكل المشاكل تأخذ أحجامها من رجالها وابن حنبل كان رجلاً ضخماً كالجبل ، كان ممثل الشرع والحق ورجل الأمة وبهذا الوضع خاض المعركة . السيادة على هذه الدنيا لله وشريعة الله والحق والعدل وليست للمأمون أو الدولة ، هنا لا تراجع ولا تردد ولا مساومة ، والموت هو أهون ما يتعرض له صاحب الفكر والرأى في هذه الحالة ، وهذا كان مبدأ أحمد بن حنبل ولو أنه أحنى رأسه لكان له ألف عذر ، ولا بأس على المؤمن إذا خاف على حياته أن يتقى سيف الجبار بكلمة أو بانحناءة رأس ، رقد التمس رسول الله ﷺ العذر لبعض المستضعفين في الأرض عندما تلفظوا بشيء يرحمهم من العذاب .

ولكن أحمد بن حنبل لم يكن مستضعفاً في الأرض لكى يشتري سلامة نفسه بالتقريب فيما رأى أنه واجبه نحو الله والأمة ، فظل مكانه كالصخرة العاتية وأعز الدين والشرع والأمة بهذه الوقفة وبها أيضاً أصبح أحمد بن حنبل هو الإمام الأعظم ، وعظماء الرجال يحددون مكانهم بأنفسهم ولهذا فهم يصنعون التاريخ .

ولكى تلمس بيدك الوضع الحقيقى للمسألة – وهو سياسى كما قلت – أورد لك مقتطفات من البيان الذى أذاعه الخليفة المأمون معلناً فيه الحرب على أئمة السنة وداعياً إياهم إلى الخضوع لإرادته :

« أما بعد . فمن حق الله على خلفائه فى أرضه وأمنائه على عباده الذين ارتضاهم لإقامة دينه وحملهم رعاية خلقه وإمضاء حكمه وسنته والالتزام بعدله فى بريته ، أن

يجهدوا لله أنفسهم وينصحوا له فيما استحفظهم وقلدهم ، ويدلوا عليه تبارك اسمه وتعالى ، بفضل العلم الذى أودعهم والمعرفة التى جعلها فيهم ، ويهدوا إليه من زاغ عنه ويردوا من أدبر عن أمره ، وينهجوا لرعاياهم سمت نجاتهم ويقفوهم على حدود إيمانهم (أحمد زكى صفوت ، جمهرة رسائل العرب ٣ / ٤٢ - ٤٧) وهكذا يجعل المأمون نفسه راعياً للدين ، وصياً على الإيمان ، مسئولاً عن الإسلام ، وهو بهذا يريد أن ينتزع لنفسه حقاً أباه عليه وعلى أسلافه أهل العلم والفقهاء ، فإن الخليفة عندهم سيد فى أمور الدنيا فهى فانية لا تساوى عند الله شيئاً ولكنه ليس إمام الأمة ولا راعى الدين ولا المؤمن على العقيدة فقد خرج الخلفاء بتصرفاتهم على الدين والمنهج والحق والعدل من زمن بعيد .

ثم يدخل المأمون فى صميم الموضوع ويقول : « مما تبينه أمير المؤمنين برويته وطالعه بفكره ، فتبين عظيم خطره وجليل ما يرجع إليه الدين من وكفه (الوكف : العيب والإثم والضرر) ما ينال المسلمين من القول فى القرآن الذى جعله الله إماماً لهم ، وأثراً من رسول الله وصفيه محمد ﷺ باقياً لهم واشتباهاه على كثيرين منهم حتى حسن عندهم وتزين فى عقولهم ألا يكون مخلوقاً ، فتعرضوا بذلك لدفع خلق الله الذى بان به عن خلقه » .

ثم يتهمهم بعد ذلك بالجهل والكفر لكى يستحل بذلك دماءهم : « وقد عظم هؤلاء الجهلاء - بقولهم فى القرآن - التلم (الانكسار) فى دينهم والجرح فى أمانتهم ، وسهلوا السبيل لعدو الإسلام واعترفوا بالتبديل والإلحاد على قلوبهم ، حتى عرفوا ووصفوا خلق الله بالصفة التى هى لله وحده وشبهوه به ، وليس يرى أمير المؤمنين لمن قال هذه المقالة حظاً فى الدين ولا نصيباً من الإيمان واليقين ، ولا يرى أن يحل أحد منهم محل الثقة فى أمانة ولا عدالة ولا شهادة ولا صدق فى قولهم ولا حكاية ، ولا تولية لشىء فى أمور الرعية » ، ثم يجيء بعد ذلك قرار الخليفة بامتحان القضاة والفقهاء على أساس القول بخلق القرآن فمن أقر بذلك منهم ترك فى وظيفته وحاله ، ومن رفض أخرج من عمله وأنزل به العقاب (اقرأ بقية البيان فى جمهرة رسائل العرب ٣ / ٤٢ - ٤٧) .

هذا هو البيان الذى أذاعه المأمون وهو فى الغالب من تحرير أحمد بن أبى دؤاد كبير القضاة وصاحب الكلمة المسموعة عند المأمون وهو من كبار المعتزلة ، وكان رجلاً عظيم

المهابة واسع السلطان وهو عربى من أياد ، وقد ولد في قنسرين جنوبي حلب ، وكان عالماً بليغاً واسع المروءة بعيد الهمّة يتعصب للعرب ، ولكنه كان أولاً وقبل كل شيء يتعصب لنفسه فهو كبير القضاة وعالم الدولة وصاحب رأى السلطان فكيف يزعم أحمد بن حنبل وأمثاله أن لهم كلمة في الدين فوق كلمته ؟ (انظر ابن خلكان ١ / ٣ ، وأحمد أمين ، ضحى الإسلام ٣ / ١٥٥ وما بعدها ، وعبد الحليم الجندى ، أحمد بن حنبل ٢٧٩ وما بعدها) .

وبدأ رجال الدولة وفقهاؤها في امتحان الفقهاء وكان ذلك سنة ٢١٨ هـ / ٨٢٣ م ، وكان المأمون في دمشق ثم مضى إلى طرسوس لأنه كان معسكراً على حدود دولة الروم وطلب أحمد بن أبى داود إلى نائبه في بغداد إسحاق بن إبراهيم (ت ٢٣٥ هـ / ٨٤٩ م) وهو فارسي الأصل عربى خزاعى بالولاء بأن يرسل إليه محمد بن سعد (كاتب الواقدي) ويزيد بن هارون ويحيى بن معين وأبا خيثمة زهير بن حرب (ت ٢٢٤ هـ / ٨٤٩ م) وكان من أكابر أئمة الحديث ومن أكابر أصحاب أحمد بن حنبل ونفراً اخر فامتحنوا وأجابوا جميعاً بخلق القرآن وأحنوا هامتهم للسلطان .

إلا أحمد بن حنبل لأن ، المسألة إذا كانت في نظر المأمون وقاضيه مسألة دولة (كما يقول الأستاذ الجندى) فهي في نظر أحمد بن حنبل مسألة دين وأمة ، وهنا لا بد من الوقفة الصلبة والإرادة والعزيمة .

ومعظم الفقهاء سلموا خوفاً من السيف إلا أحمد بن حنبل وصديق له هو محمد ابن نوح فوضعت في أيديهما قيود حديدية وأرسلوا إلى طرسوس ليلقيا العذاب والعقاب ، وعندما عبر الجند بهما الفرات عند الرقة لقيهما الفقيه أبو جعفر الأنبارى ، فقال له أحمد : يا أبا جعفر تعنيت (أتعبت نفسك) .

قال : ليس هذا عناء ، أنت اليوم رأس والناس يقتدون بك فوالله لئن أجبته بخلق القرآن ليجيبن بإجابتك خلق من خلق الله . ومع ذلك فإن الرجل إن لم يقتلك فأنت تموت ولا بد من الموت فاتق الله ولا تجبهم بشيء فجعل أحمد يقول : ما شاء الله . ما شاء الله .

وفي ١٨ رجب ٢١٨ هـ / ٨٢٣ م وقف الرجلان على أبواب طرسوس على حدود دولة الروم في تركيا الحالية وعندما دخلا أذنة (في تركيا) وكان المأمون معسكراً فيها ، مات المأمون ، مات في الثامنة والأربعين من عمره كما مات أبوه الرشيد في تلك السن

وعادوا بهما إلى الرقة (في العراق) وهناك مات محمد بن نوح لشدة ما لقي من الأغلال
والحبس والركوب على الخيل دون سرج أو قتب ، وقبل موته قال لأحمد : يا أبا عبد الله :
الله الله ! إنك لست مثل أنت رجل يقتدى به وقد مد الخلق أعناقهم إليك لما يكون منك
فاتق الله واثبت لأمر الله .

وتولى بعد المأمون أخوه أبو إسحاق المعتصم ، وكان شاباً عسكرياً لا شأن له
بالفكر ، ولكن المأمون أوصاه بأن يطيع أحمد بن أبي دؤاد ويستمر في امتحان الفقهاء
فسار في طريق أخيه بصورة أعنف وأشد .

ويظل أحمد بن حنبل في الحبس والقيد إلى سنة ٢٢٠ هـ / ٨٣٥ م ، وبعض أحبائه
يطلبون إليه أن يجيبهم إلى ما يطلبون تقيّة فكان يقول : « إذا سكت العالم تقيّة
والجاهل يجهل فمتى يظهر الحق ؟ ثم يقول : ما أبالي بالحبس ما هو ومنزلي إلا واحد
ولا قتلاً بالسيف ، إنما أخاف فتنة السوط وأخاف ألا أصبر » ، فهو هنا رجل لا يتشدق
بالبطولة ولكنه مؤمن صريح واضح صابر .

وفي السجن يعيش الإمام العظيم مع غيره من السجناء ، ويتحول السجن إلى
مصلى ومسجد والإمام أحمد - في انتظار الموت - يؤم الناس في الصلاة ويلقى عليهم
الدروس ويقول له واحد منهم : لا عليك يا أبا عبد الله فما هما إلا سوطان ثم لا تدرى
أين يقع الباقي ! ثم حولوه إلى سجن انفرادى وسجنوه في دار إسحاق بن إبراهيم وإلى
بغداد وجعل هذا يرسل إليه ويخوفه ويقول : يا أحمد إنها والله نفسك إنه لا يقتلك إلا
بالسيف إنه - الخليفة المعتصم - قد آل على نفسه إن لم تجبه أن يضربك ضرباً بعد
ضرب وأن يلقيك في موضع لا ترى فيه الشمس .

وبعد أيام حملوه إلى مجلس المعتصم وكان شاباً في الأربعين وقد أصر على إنزال
الإمام أو قتله وأحمد كان في السادسة والخمسين من عمره ، شيخاً عظيماً شديد
السمرة شاب معظم شعره وهو يقف في قيوده رافع الرأس عليه ثوب أبيض بالغ
النظافة وكان أحمد حريصاً دائماً على نظافة ثوبه وجسده وشعره وكل هيئته .

وفي مجلس المحاكمة حاولوا أن يثنوه عن عزمه فأبى والخليفة كان يتجنب إيقاع
العذاب بالفقيه العظيم ، ولكن أحمد بن أبي دؤاد يقول : يا أمير المؤمنين . ما هو والله إلا
ضال مبتدع !

وتتابع الحاضرون يسبونونه والخليفة يهاب الإمام ويطلب إلى رجاله مناظرة الإمام والإمام يلزمهم الحجة بعد الحجة ولكنهم في ضلال ، ويقول الخليفة : « وألله لئن أجبني لأطلقن القيد عنه بيدي ولأركببن إليه بجندى ولأطأن عقبه (أى أسير خلفه) ثم يقول : يا أحمد إنى والله عليك لشفيق وإنى لأشفق عليك شفقتى على هارون ابنى ما تقول ؟ ويقول أحمد : أعطونى شيئاً من كتاب الله .

وعاد الخليفة يقول : يا أحمد ، أجبني إلى شىء فيه أدنى فرج لك حتى أطلق عنك بيدي .

ويجيب أحمد : أعطونى شيئاً من كتاب الله .

وبلغت المحنة ذروتها في رمضان سنة ٢٢٠ هـ وأحمد صائم وقد هد السجن والحديد كيانه وعندما تأكد أن العذاب والقتل يكون غداً طلب خيظاً شد به قيده وأصلح سراويله حتى لا يتعري إذا أصابه أذى .

وفي الصبح أدخل على الخليفة في قيوده ولما يش منه الخليفة قال : عليك اللعنة خذوه واسحبوه وخلعوه ! وعلقوه بذراعيه على خشبة وعروا ظهره وضربوه بالسياط فأغشى عليه ووقع وداسوه بأقدامهم ولما أفاق أتوه بسويق فأبى أن يفطر والوقت كان رمضان وقام فصلى فقال له بعضهم : صليت والدم يسيل في ثوبك فقال : قد صلى عمر وجرحه يثعب دماً .

وأمة الإسلام كلها كانت تتطلع إلى أحمد ، ذهب الفقيه الكبير أبو عبيد القاسم بن سلام يستطلع الخبر وجعل يقول : أياضرب سيدنا ؟ وبشر الحافي الصوفي يقول : إن كان أجاب فأنا أدخل فأقوم مقامه فخرج رجل يقول لم يجبه فحمد الله وأخرجوه من العذاب وقيل له : ادع على ظالمك فقال : ليس على الصابر من دعاء على الظالم . وقيل أن يخرج جعل الخليفة في حل أى عفا عنه .

لقد طالما حدثوك عن موقف سقراط أمام المحنة والموت فهذا أعظم من سقراط !

ثبت للمحنة ونصر الدين وهزم الدولة ، لقد عفا عن الخليفة لأنه حاكم جبار ، ولكنه لم يغفر أبداً لأصحابه العلماء من أمثال يحيى بن معين وأحمد بن زهير بن حرب ، وفي سنة ٢٤٢ هـ / ٨٥٦ م مات الخليفة المعتصم وخلفه المتوكل فأبطل المحنة وتوفي أحمد في ربيع الأول ٢٤١ هـ / يوليو ٨٥٥ م عن ثمان وسبعين سنة .

obeikandi.com

الْبَدَايَةُ الْعَظِيمَةُ أَضَبَحَتْ نِهَايَةَ أَلِيْمَةٍ

كانت مسألة خلق القرآن ومحنة أهل السنة - وعلى رأسهم هنا أحمد بن حنبل - في صميمها مسألة سياسية ، والصراع فيها كان صراعًا سياسيًا خلاصته أو محوره : من صاحب الأمر في دولة الإسلام ؟ . الخليفة رأس النظام السياسي القائم ، قائد جيوش الأمة ومالك أموالها جميعًا : ما في خزائن الدولة وما في أيدي الناس ، وصاحب الحق المطلق في دماء الناس ؟ . فله الحق المسلم به - بصفته الخليفة ورأس الأمة . أم العلماء والفقهاء فهم الذين يعرفون الكتاب والسنة حق المعرفة ؟ . ومن هنا فهم أعلم الناس بشريعة الله ، وهى القانون الأعلى الذى ينبغى أن يحكم كل شىء . وكل تصرف للناس في بلاد الإسلام وهم القضاة الذين يفصلون في خصومات الناس ، وهم أصحاب الفتوى الذين يستفتيهم الناس فيما أهمهم من شئون الدنيا والدين ؟

والخليفة المأمون (المحرم ١٩٨ - ١٦ رجب ٢١٨ هـ ، سبتمبر ٨١٣ - مارس ٨٢٣ م) في بيانه الذى أتينا بأطراف منه في الفصل الماضى يريد أن ينتزع لنفسه إمامة الدين والدنيا ويريد تجريد أهل العلم والفقهاء من كل سلطة ومكانة ، فهو يقول : أما بعد فإن من حق الله على خلفائه فى أرضه ، وأمنائه على عباده الذين ارتضاهم لإقامة دينه ، وحملهم رعاية خلقه ، وإمضاء حكمه وسنته ، والائتمام بعدله فى بريته ، أن يجهدوا الله أنفسهم ، وينصحوا له فيما استحفظهم وقلدهم ؛ ويدلوا عليه تبارك اسمه وتعالى بفضل العلم الذى أودعهم والمعرفة التى جعلها فيهم ويهدوا إليه من زاغ عنه ..

وهذا كلام واضح لا لبس فيه . وقد فهمه فقهاء السنة على وجهه وحقيقته فرفضوه ونهضوا يعارضون السلطان ، وعندما أمر المأمون فى نهاية بيانه كبير قضاته ونائبه فى بغداد أن يبدأ بامتحان العلماء والفقهاء فى مسألة القول بخلق القرآن . كان ذلك فى حقيقته إنذارًا لهم جميعًا بضرورة التسليم بأن الخليفة هو صاحب الأمر فى شئون الدين كما هو صاحبه فى شئون الدنيا ، أما القول بخلق القرآن أو رفض ذلك القول فمجرد ذريعة أو نقطة اختبار ، فالتسليم بأن القرآن مخلوق معناه - فى الحقيقة - التسليم بحق الخليفة فى التشريع والقضاء والتنفيذ بلا معقب .

وأحمد بن حنبل وأضرابه ممن رفضوا القول بخلق القرآن كانوا يفهمون ذلك تماماً ، ويعرفون أنهم إذا رفضوا دعوى الخليفة كانوا خارجين عليه وعلى سلطانه ، ومن حقه في هذه الحالة أن يعزل أو يسجن أو يعذب أو يقتل منهم من يريد ، شأنهم في ذلك شأن غيرهم من العصاة . وأحمد بن حنبل ومعاصروه من أئمة السنة يقفون بذلك على قمة مسيرة فكرية أساسية أشرنا إليها مرة أخرى في هذه الدراسة ، وهى إنكار أهل العلم لأى حق للدولة في التدخل في شئون العقيدة أو الشريعة ، وإذا كان ولى الأمر هو الذى يعين القضاة ، فإن تعيينه إياهم ممارسة لحق إدارى ، لأن أعوان السلطان هم الذين يتولون تنفيذ أحكام القضاة ، ولا يمكن للقاضى أن يأمر رجال التنفيذ بتنفيذ أحكامه إلا إذا سبق هذا أمر بتعيينه قاضياً من رئيس السلطة التنفيذية ، إن أمر التعيين هنا ممارسة لحق إدارى تنفيذى ، ولكنه ليس ممارسة لحق سيادة ، فلا سيادة للخليفة أو السلطان على الدين والعلم والفقهاء والتشريع وأحكام القضاة . فهنا مجال سيادة أخرى هى سيادة الشرع والقانون ، والأمة — لا الخليفة — هى الوصية على الشرع الحفيظة على دين الله منذ قيام خلافة بنى أمية سنة ٤٠ هـ / ٦٦١ م . فهى فى نظر الأمة إمامة باطلة قامت على رغم الأمة وعلى خلاف شرع الله ، واقترب خلفاء بنى أمية كل الموبقات التى نهى عنها الإسلام ، فلم يعودوا بذلك أمناء على شرع الله ولا على أمة الإسلام ، وانفصلت الأمة والدين عن الدولة وأصحابها ، وسار كل منهما فى طريق .

وعندما قامت دولة العباسيين زعم داود بن علي عم عبد الله السفاح فى خطابه الأول فى الكوفة أن دولتهم أتت بشريعة الله ! : « لكم ذمة الله تبارك وتعالى ، وذمة رسول الله ، وذمة العباس رحمه الله أن نحكم فيكم بما أنزل الله ، ونعمل فيكم بكتاب الله ، ونسير فى الخاصة والعامة منكم بسيرة رسول الله ﷺ » ثم لم يلبث هو وآله أن أغرقوا الدنيا فى المقاتل والدماء ، وتعدوا حدود الله على ما بينا فى أكثر من موضع من هذه الدراسة ، واستمرت القطيعة بين الأمة والدولة بل اتسعت ، وزاد التفاف الناس حول الأئمة ، وشعر خلفاء بنى العباس بأن أمر الأمة يخرج من أيديهم ؛ فمضوا يتحिनون الفرص لانتزاع السيادة الشرعية من أيدي الفقهاء ، حتى إذا جاءت قضية خلق القرآن اتخذوها ذريعة لانتزاع هذه السيادة ، فلم يوفقوا ؛ لأن أحمد بن حنبل وأضرابه وقفوا لهم هذا

الموقف الصلب ، وثبتوا للمحنة ، ولم يسلموا للخلفاء بذلك الحق ، والفقهاء في هذا الصراع كانوا أقوى من الدولة ؛ لأن الأمة وقفت معهم ومات في المحنة من مات ، وضرب أحمد بن حنبل بالسياط ، فلم يستسلم ، وأصبح بثباته رمزاً على تمسك الأمة بالحق وشريعة الله في وجه الطغيان ، وقد رأينا تقدير العلماء لهذا النفر من علمائهم لثباتهم في الدفاع عن شرع الله وحق الأمة فيه ، وتصديهم للخلفاء ورجالهم وإزرائهم بالمعتزلة والمتكلمين الذين احتقروا الأمة ، ونظروا إليها نظراتهم إلى البهائم كما رأيت في بعض ما أوردنا من كلامهم ، وخاصة الجاحظ وبشر المريسي وأضرابهما .

وقد رأينا حماسة الناس لأحمد بن حنبل ووقوفهم إلى جانبه أيام المحنة ، لأنهم أحسوا أن القضية قضيتهم ، وأن هذا الرجل إذا لم يحن هامته لهم فقد انتصر وانتصروا معه ، فإن جمهور الناس كانوا موتورين من ظلم بنى العباس وعبثهم بالأموال والدماء والحقوق والكرامات ، تواقين إلى من ينصرهم عليهم ؛ فجعلوا عندما سيق أحمد بن حنبل للعذاب يتنسمون الأخبار ويسألون : هل أجابهم ؟ فإذا قيل لهم : لا لم يجيبهم طربوا وحمدوا الله ، حتى إذا انتهت محنة الرجل أحسوا أنهم انتصروا على السلطان بانتصار أحمد بن حنبل عليه ، وأصبح هذا الانتصار رمزاً عندهم على سيادة الأمة وسيادة شرع الله .

ورفعوا أحمد بن حنبل إلى مكان لم يرفعوا إلى مثله فقيهاً على كثرة ما عرفوا من أجلاء الفقهاء من أمثال سعيد بن المسيب وسفيان الثوري وسفيان بن عيينة وأبي حنيفة النعمان بن ثابت ، ومالك بن أنس ومحمد بن إدريس الشافعي .

وأنت تفهم من موقف الأمة هذا أنها ليست بالجهل الذي تصور المترفعون عليها من أهل الفكر والعلم الذين ذكرناهم ، فها هي ذى تعرف من حقائق الصراع الدائر أكثر مما عرف محمد بن سعد كاتب الواقدي ، ويحيى بن معين ، وأحمد بن زهير بن حرب ابن أبي خيثمة ، فقد سلم هؤلاء للمأمون بما أراد حاسبين أنها قضية فقهية عادية يجوز للعالم أن يخلص نفسه من عذابها بالتسليم الظاهر لصاحب السلطان .

وفي القلب ما فيه ، والله سبحانه أعلم بما في القلوب ، فأنجوا أنفسهم من العقاب وفاتهم المعنى البعيد الذي فهمته الأمة عندما وقفت مع أحمد بن حنبل ، فهي قضية حق وعدالة وشريعة وأمة ، ولهذا أصبح أحمد بن حنبل هو الإمام عندهم ولا إمام غيره ، ولا

يحسبن القارىء أن محمد بن سعد أو أحمد بن زهير بن حرب ويحيى بن معين لم يكونوا من أجلاء الفقهاء ، فقد كانوا فعلاً ممن تفخر بهم هذه الأمة علماً وديناً وصدقاً وفضلاً ، ولكن هناك مواقف تتطلب من الناس فوق العلم والفضل : الفهم لمعنى الموقف ومغزاه ، وأحمد بن حنبل كان على مستوى الموقف ، والأمة كانت على مستوى الموقف ، ويخطىء كل الخطأ من يستصغر الأمة أو ينظر إليها نظرتة إلى الجاهل الذى لا يفهم . فالأمم بطبعها تحس بالحق وتعرف الحق وتميز بالإحساس الفطرى بين من يحبونها ويخلصون لها ومن لا يؤمنون بها ، ففى ١٢ نوفمبر ١٩١٨ ذهب سعد زغلول وعبد العزيز فهمى وعلى شعراوى وقابلوا المندوب السامى البريطانى فى مصر وهو السير ريجنالد وينجت وحدثوه فى أمر حق مصر فى الاستقلال فاستصغر الرجل شأنهم وشأن مصر ورد عليهم رداً يفهم منه ذلك ، فأما عبد العزيز فهمى وعلى شعراوى فقد اكتفيا بذلك ، وأما سعد زغلول فقد أثبت بعد قليل أنه رجل الموقف والمؤهل للمطالبة بحق الشعب المصرى . ففى ٧ فبراير ١٩١٩ حضر سعد زغلول باشا مع نفر من كبراء مصر من أمثال عبد الخالق ثروت باشا محاضرة فى دار جمعية الاقتصاد والتشريع ألقاها قاض بريطانى يسمى برسيغال وقدم بها مشروع قانون للعقوبات وضعته لجنة كانت تسمى لجنة الامتيازات الأجنبية ، فوقف سعد زغلول بعد المحاضرة وقال كلمة تعليق عليها ختمها بقوله : « فى سنة ١٩١٤ أعلنت انجلترا حمايتها (على مصر) من تلقاء نفسها بدون أن نطلبها أو تقبلها الأمة المصرية فهى حماية باطلة لا وجود لها قانوناً ، بل هى ضرورة من ضرورات الحرب تنتهى بنهايتها ولا يمكن أن تعيش بعد الحرب دقيقة واحدة » . فدوت هذه الكلمة فى أرجاء مصر كلها ، وكانت الشرارة التى أشعلت ثورة ١٩١٩ ، وبها وبما تلاها من أعمال الإقدام والشجاعة والحكمة تقدم سعد زغلول الصفوف وأصبح زعيم هذه الأمة ، وفهمت الأمة مغزى العبارة فهبت مستجيبة لسعد على بكرة أبيها ، فكانت هذه الأمة التى كان الباشوات والأمراء ينظرون لها على أنها أمة جاهلة كانت - رغم جهلها المزعوم هذا - أذكى وأصدق فهماً وتقديراً للموقف من بقية الباشوات والمتنفذين ، ثم سارت بعد ذلك بثورتها يتقدمها سعد ومن انضم إليه فى مسيرتها الخالدة فى سبيل الحرية والاستقلال .

مثل هذا الشعور كانت أمة الإسلام تتبادل مع أحمد بن حنبل ، وكانت تلك الأمة تنتظر من ابن حنبل أن يواصل مسيرته معها ، وسنرى فيما بعد إن كان قد سار أم لم

يسر ، وإذا كان أحمد بن حنبل لم يقل إذ ذاك كلمة تعبر عن إدراكه الكامل لحقيقة الموقف ، مكتفياً بالعمل دون القول وهذا أبلغ . فإن عالماً مصرياً من تلاميذ الشافعى هو يوسف بن يحيى البويطى (ت سنة ٢٣٢ هـ / ٨٤٦ م) عبّر بأجلى بيان عن حقيقة الصراع قبل أن يموت فى سجنه ، فقد رفض أن يجيب بخلق القرآن فأخذته المحنة ، وألقى فى السجن مكبلاً بأغلال زنتها أربعون رطلاً من الحديد ، فيكتب من سجنه إلى الربيع بن سليمان المرادى زميله فى مشيخة الشافعية فى مصر يوصيه بالاستمرار فى التدريس مكانه ويقول : « إنه لتأتى على أوقات ما أحس بالحديد أنه على بدنى حتى تمسه يدى إنى لأرجو أن يجزى الله عز وجل أجر كل ممتنع فى هذه المسألة لسيدنا الذى فى بغداد . » رواه عبد الحليم الجندى فى كتابه عن أحمد بن حنبل ص ٢٩٨ عن سيرة البويطى فى طبقات الشافعية لتاج الدين السبكى . وقد توفى البويطى فى سجنه مؤكداً الحقيقة الخالدة من أن مصر موطن الشهداء .

لقد أثبت أحمد بن حنبل بموقفه من السلطان أنه أهل للموقف ، ولكن هل أثبت بعد ذلك أنه أهل للمسئولية التاريخية التى كان هذا الموقف يتطلبها منه ؟

لقد رأينا سعد زغلول يثبت بخطابه فى جمعية الاقتصاد والتشريع أنه أهل للموقف ، ولو أنه وقف عند هذا الخطاب لكان أهلاً للموقف غير أهل للمسئولية ، ولكن سعد زغلول عندما رأى الأمة تستجيب لصوته ألقى بنفسه فى المعركة وسار فى مقدمة الصفوف غير هياب فأنبت بذلك أنه أهل للموقف وأهل للمسئولية كذلك ، ودخل التاريخ على أنه رجل سياسة وحق وبلاغة وبسالة وقائد حركة تحرير كبرى ، وكان بهذا كله جديراً بأمرته كما كانت هى جديرة به .

فماذا فعل أحمد بن حنبل للأمة التى علقت عليه الآمال ، ووقفت إلى جانبه واجفة ساهرة الليل أيام المحنة ؟

لقد انتهت المحنة فى ذى الحجة ٢٣٣ هـ / يوليو ٨٤٧ وخرج أحمد بن حنبل من سجنه وعاد إلى بيته ، وكانت سنة ٦٩ سنة هجرية ، وبقيت له من سنوات العمر ثمانى سنوات فماذا فعل خلالها ؟

لزم داره وواصل حياة الزهد والتقشف والتباعد عن السلطان مع أن الأمة كانت تطلب منه إذ ذاك الكثير ، فقد كانت أحوال الناس تسير من سىء إلى أسوأ ، والخليفة

المتوكل الذى أبطل المحنة لم يفعل ذلك تقى أو ورعاً ، بل حسب أنه يكسب الرجل إلى جانبه ، وكان في ذلك غافلاً أشد الغفلة عن حقيقة الإمام العظيم كما كان في غاية الغفلة عن كل ما حوله وكل ما كانت الخلافة تتطلب منه . لقد تولاهما واسمه أبو الفضل جعفر ابن أبى جعفر هارون الواثق بن إسحاق محمد المعتصم في ٢٣ ذى الحجة سنة ٢٣٢ هـ ومكث في الخلافة خمس عشرة سنة تقريباً - إذ إنه توفى في شوال ٢٤٧ هـ / يناير ٨٦٢ م . وخلال هذه الفترة ارتكب من الموبقات والمظالم ما فاق به سابقه . وهذه المساءات كلها كانت تقع على كواهل الناس ، والناس كانوا في أشد الحاجة إلى رجل يقودهم للخلاص مما كانوا يعانون منه . لقد كانت وقفة أحمد بن حنبل من السلطان في مسألة خلق القرآن بداية لحركة كان ينبغي أن تستمر حتى تؤتى ثمارها . وإذا كان هو قد كبرت سنه فإن أفكاره كانت شابة ولا بد أنه كان في تلاميذه من يستطيع مواصلة النضال لو أنه طلب إليهم ذلك ، وقد كان من بين تلاميذه كثيرون جداً مستعدين للسير في الطريق ، وما كان على الرجل بعد أن وقف هذه الوقفة ووضع بها حداً لتدهور شرعى وإنسانى طويل ألا يخطو الخطوة الأولى في الطريق الصحيح فتستمر المسيرة ويتغير وجه التاريخ ؛ لأن أمة العرب والإسلام التى وقفت إلى جانب أحمد بن حنبل وأيدته ضد السلطان كانت أمة قوية شابة وما زالت بخير بفضل حيوية العقيدة الإسلامية وقوة الجيش العربى ، ولكن أحمد بن حنبل بعد هذه الوقفة استمر واقفاً مكانه مكتفياً بما تحمل من عذاب السجن والسياس قانعاً بما جنى في مقابل ذلك من المجد . فكانت النتيجة أن وقفته ظلت مجرد وقفة رجل شجاع وانتهت عند هذا الحد ، بل إن التدهور الخطير بدأ بعد ذلك ؛ لأن موقف الجمود بعد الشروع في المسير خذل الأمة وخيب آمالها فبدأ اليأس يثقل عليها حتى شل فكرها . وبعد الشلل جاء الجهل فأكمل المأساة ، والحنبلية التى بدأت تلك البداية العظيمة أصبحت شرّاً مستطيراً على الأمة وعاملاً من أكبر عوامل إسراع الضعف إلى كيانها ، وسأفصل لك ذلك على قدر ما يسمح به المجال وسأتيك بمقارنات من تجارب أمم أخرى تفتح أمامك مجالات للتفكير والتدبر في أسباب تخلف هذه الأمة ، لأن تخلفنا نسبي ، أى أننا أصبحنا متخلفين بالنسبة لغيرنا ممن سلكوا غير مسلكنا ، والحقائق تتكشف بالمقارنة بالنظائر والأشباه وتتضح أكثر بالمقابلة مع الأضداد والنقائص .

وقبل أن أدخل في هذا التوجيه الجديد لموضوع أحمد بن حنبل أحب أن أعطيك فكرة عن حيوية أمة العروبة والإسلام في نفس ذلك الوقت الذي وقف فيه أحمد بن حنبل بها في بداية الطريق . وكما هي العادة أتيت بهذه الفكرة في صورة شاهد حي من التاريخ ، فإننا لم نعرف أبداً كيف نفيدهم من مواهب أمتنا التي جعلنا تاريخها سرداً مملأ لتواريخ الدول ووقفات عند أعلام صورناهم على أنهم مصابيح مضيئة وسط ظلام ، وما كان الذى حول هذه المصابيح بظلام قط ، وأمتنا كانت وما زالت عامرة بالخير والمواهب والقدرة على العطاء . وقد رأيت أن رجلاً مثل يحيى بن يوسف البويطى لم يقل ثباتاً ولا بسالة عن أحمد بن حنبل ، بل هو احتمل من التعذيب أضعاف ما احتمل أحمد بن حنبل ثم وهب ثواب ذلك كله له ، ثم مات في سجنه عزيزاً راضياً ، فوصل بالشهادة في سبيل الرأي إلى منتهاها ، ومثل يحيى البويطى كثيرون ولكننا ننساهم لكى نقصر المجد كله على رجل واحد . والخبر التالى يدل على أن عامة أمة الإسلام كانت من ناحية البسالة والإدراك والإحساس بالشخصية على مستوى لا يقل عن أحمد بن حنبل ، كما كانت الأمة المصرية على مستوى سعد زغلول . والفرق هنا أن سعد زغلول وقف الوقفة التى وضعت حداً للاحتلال ثم سار في مقدمة الركب في طريق الاستقلال فتحولت كلمة ألقىت في قاعة محاضرات إلى حركة قومية كبرى . أصبحت الوقفة بداية طريق في حين أن وقفة أحمد بن حنبل تحولت إلى بداية ونهاية في نفس الوقت ، بل أصبحت بداية لتدهور أشد كما سنرى .

وإليك الخبر الذى أريد سياقه لك وهو وارد عند الطبرى (حـ ٦ / ٥٠٢ وما بعدها) والأغانى (٥٤ / ١٧) والنويرى في نهاية الإرب (١٥٥ / ٢٢ وما بعدها) في حوادث سنة ١٩٠ هـ / ٨٠٥ م أيام هارون الرشيد أى في نفس العصر الذى نتحدث عنه على وجه التقريب : أن الرشيد لما حصر هرقله Heraclaa (وهى من بلاد الروم في آسية الصغرى بعد مناطق الثغور الإسلامية في الطريق إلى قونية) وألح عليهم بالمجانيق والسهام والعرادات ، فتح الباب ذات يوم ، فاستشرف المسلمون لذلك ، فإذا رجل من أهلها كأكمل الرجال قد خرج في أكمل السلاح فنادى : قد طال موافقتكم إيانا ، فليبرز إلى منكم رجالان ، ثم لم يزل يزيد حتى بلغ عشرين فلم يجبه أحد فدخل وأغلق الباب ، وكان الرشيد نائمًا فلم يعلم بخبره إلا عند انصرافه ، فغضب ولام جنده وغلما

على تركهم إنباهه وتأسف لغوته فقيل له : إن الامتناع منه سيغريه ويطغيه ، وأحرى به أن يخرج في غد ويطلب ما طلب .

فطالت على الرشيد ليلته ، وأصبح كالمنتظر له ، فإذا بالبواب قد فتح ، وخرج الرجل طالباً للبراز ، وذلك في يوم شديد الحر ، فجعل يدعو أنه يثبت لعشرين منهم ، فقال الرشيد : من له ؟ فابتدره جلة القواد كهرثمة (بن أعين) ويزيد بن مزيد (الشيباني) وعبد الله بن مالك وخزيمة بن خازم وأخيه عبد الله وداوود بن يزيد وأخيه ، فعزم على إخراج بعضهم فضج المطوعة حتى سمع ضجيجهم ، فأذن لعشرين منهم فقال قائلهم : يا أمير المؤمنين قوادك مشهورون بالنجدة والبأس وعلو الصوت ومدارسة الحرب ، ومتى خرج واحد منهم وقتل ذلك العلج (الرومي) لم يكبر ذلك ، وإن قتله العلج كان وصمة على العسكر قبيحة وثلمة لا تسد ، ونحن عامة ولم يرتفع لأحد منا صوت (صيت) إلا كما يصلح للعامة ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يخلينا نختار رجلاً فنخرجه إليه ، فإن ظهر علم أهل الحصن أن أمير المؤمنين قد ظفر بأعزهم على يد رجل من العامة من أخفاء الناس (مجهول من بين عامة الناس) وإن قتل الرجل فإنما استشهد ، ولم يؤثر نهابه في العسكر ، ولم يثلمه (موت) رجل ، وخرج إليه بعده مثله حتى يقضى الله ما شاء . فقال الرشيد : قد استصوبت رأيكم هذا ، فاختاروا رجلاً يعرف بابن الجزرى ، وكان معروفاً في الثغر بالبأس والنجدة فقال له الرشيد : أتخرج ؟ قال : نعم ! وأستعين بالله تعالى . فقال : أعطوه فرساً ورمحاً وسيفاً وترساً ! فقال : يا أمير المؤمنين أنا بفرسى أوثق ، ورمحى بيدي أشد ولكنى قد قبلت السيف والترس . فلبس سلاحه . واستدعاه الرشيد فودعه وأتبعه الدعاء وخرج معه عشرون من المطوعة ، فلما انقض (نزل) في الوادى قال لهم العلج - وهو يعدم واحداً واحداً - إنما كان الشرط عشرين وقد زدتهم رجلاً ولكن لا بأس فنادوه : ليس يخرج إليك إلا رجل واحد ، فلما فصل منهم ابن الجزرى وقد أشرف (أطل) أكثر الناس من الحصن يتأملون صاحبهم والقرن (خصمه) وقرينه الذى سييارزه من المسلمين فقال له الرومي : أتصدقنى عما أستخبرك ؟ قال : نعم . قال : أنت بالله ابن الجزرى ؟ قال : اللهم نعم ! فكر له (خرج له) ثم أخذوا في شأنهما فتطاعنا حتى طال الأمر بينهما ، وكاد الفرسان يقومان وليس يחדش واحد منهما صاحبه ، ثم تحاجزا بشيء (أى استتر كل منهما عن صاحبه

بشيء) فزج كل منهما رمحه واحتضن سيفه فتجالدا ملياً واشتد عليهما الحر وتبلد الفرسان وجعل ابن الجزرى يضرب الضربة التى يرى أنه بلغ بها فيتقيها الرومى وكان ترسه من حديد ، ويضربه الرومى ضربة معزر (أى بكل ما عنده من قوة) فلما ينس كل واحد منهما من الوصول إلى صاحبه انهزم ابن الجزرى ، فدخلت المسلمين كآبة لم يكتئبوا مثلها قط ، إنما كانت هزيمته حيلة وعطعت المشركون اختيالاً وتطاولوا وإنما كانت هزيمته حيلة منه فاتبعه العليج وتمكن منه ابن الجزرى فرماه بوهق (ضربة سيف) فوقع فى عنقه فما أخطاه وركض فاستلبه عن فرسه فما وصل إلى الأرض حتى فارقه رأسه فكبر المسلمون أعلى تكبير وانخذل المشركون ، وبادروا الباب يغلقونه واتصل الخبر بالرشيد فصاح بالقواد : اجعلوا النار فى المجانيق . ففعلوا وجعلوا الكتان والنفط على الحجارة وأضرموا ناراً ورموا بها السور فكانت النار تلصق به وتأخذه الحجارة وقد تصدع وتهافت فلما أحاطت بهم النيران فتحوا الحصن مستأمنين ..

وصبَّ الرشيد الأموال على ابن الجزرى وقوده (أى رفعه إلى مرتبة القيادة) فلم يقبل التقويد وسأل أن يعفى ويترك مكانه من الثغر فلم يزل به طول عمره .. وقد أتيت بهذا الخبر على تواليه حتى ترى بنفسك أن أمة العرب كانت لا تزال بخير ، فهذا رجل من العامة التى احتقرها أصحابنا أشد الاحتقار يثبت أنه أقدر وأثبت من كبار القواد ، وأصحاب ذلك الرجل أثبتوا أنهم أصحاب رأى حكيم ونظر سديد وحرص على صالح المسلمين شديد ، والمطوعة هم المتطوعون الذين يخرجون للجهاد فى سبيل الله وقيومون فى الثغور درعاً لأمة الإسلام وهم لا يطلبون الأجر إلا من الله سبحانه ، فهم أصحاب إيمان حق وقد رأيت ابن الجزرى يرفض القيادة ويفضل أن يظل مجاهدًا فى سبيل الله ، ونحن إلى يومنا هذا نعرف أمتنا ونعرف أنها لم تخل ولا يمكن أن تخلو من الرجال ذوى الرأى والشهامة والنجدة والاحتساب وفى جيرتنا فى المدينة والقرية وفى أعمالنا فى الديوان أو المصنع أو الحقل أو الجامعة والمدرسة وبقية مناكب الحياة رجال كثيرون من أهل النجدة والشهامة وطيب الخلق والعفة والدين ، وهؤلاء هم الذين وقفوا إلى جانب ابن حنبل ونصروه ، وهؤلاء هم الذين رفعوه إلى مقام الإمامة العظمى وجعلوه بطلاً ، ولو ترك الأمر لأنداده من الفقهاء لخذله معظمهم وأسلموه ، وهؤلاء الرجال الصالحون من غمار الناس بالذات كانوا ينتظرون من ابن حنبل أكثر مما أعطى فإن الرجل كان

إيجابياً متقدماً الصفوف حتى انتهت المحنة فلما انتهت وقف مكانه وأصبح سلبيًا وقضى بقية عمره زاهدًا متقشفًا ورعًا اضطره المتوكل إلى المجيء إلى « سر من رأى » ليكون في معيته فذهب ولكنه رفض أن يكون في المعية وكان يقول : وماذا يريد هؤلاء مني ؟ (يريد الخليفة ورجاله) .

والجواب : أنهم كانوا يريدون أن يعتزوا به ويستروا بوجوده معهم عيوبهم ، ولكن الذين كانوا بحاجة إليه فعلاً كانوا جماهير أمة العروبة ، هؤلاء فعلاً كانوا في حاجة إلى بطل يسير بهم لا إلى رمز يقف معهم ، ولو كان مصير أمة الإسلام متوقفاً على زاهد متقشف يقوم الليل ويصوم النهار لكان هذا المصير ظلاماً ويأساً كله ، وقد رأينا في معابد رهبان البوذية في هضاب التبت رجالاً على الكفر ولكن إيمانهم وتقشفهم وزهدهم في الدنيا وحفظهم لكتب ديانتهم يروع القلوب ، ولكن الألوف منهم لم تخرج ببلاد التبت عن أن تكون صحراء جرداء ..

هل تذكر قصة مارتن لوثر الذى حدثتك عنه ؟ فهذا أيضاً رجل دين وقد خرج في شجاعة وكتب احتجاجه على صكوك الغفران وعلى البابوية فأثار اهتمام الدنيا ولو أنه وقف عند هذا الاحتجاج وعاد إلى كنيسته وأقام يصلى ويتعبد لما تحرك في الدنيا شيء ، ولما كانت هناك تلك الثورة الفكرية الاجتماعية السياسية التى خرجت بأوروبا من ركود العصور الوسطى ووضعتها على أول طريق سيادة الدنيا ، ذلك أن مارتن لوثر بعد أن كتب احتجاجه هذا تطلعت إليه نفوس أهل الهمة والبسالة من أمته الألمانية ، كما تطلعت أمة الإسلام إلى أحمد بن حنبل وهنا أثبت لوثر أنه رجل الموقف ورجل المسؤولية فتقدم وأهاب برجال الفضل والنجدة من الأمة فهبوا إليه سراعاً وحركته التى بدأت بتعليق احتجاجه الشهير على باب كنيسة وتبرج سنة ١٥١٧ م استشارت الهمم وأيقظت القلوب وعندما استدعوه للمناقشة أو قل للمحاكمة في كنيسة أوجزبورج ١٥١٨ تحرك الناس لنصره وعندما خاف أنصاره عليه من رجال البابا والإمبراطور في مجمع « ورمز » خطفوه إلى قلعة أمير من المتحمسين لآرائه ، وبدأ لوثر طريقه العظيم وأقبل في حصنه على العمل إقبالاً يروع النفس ، فإلى جانب ما ذكرنا من ترجمته الإنجيل والعهد القديم خرج إلى الميدان وأثبت أنه رجل الموقف والمسؤولية وابن بجدتها كما نقول : وكتب خطابه المشهور إلى أشرف الشعب الألماني An Een Christlichen

A Del Deutscher Nation وبينما خذل ابن حنبل أهل النجدة من رجال الأمة الذين تطاولت أعناقهم إليه تقدم لوثر غير هياب وقاد حركة إيقاظ الفكر الأوروبي كله ونبه الشعب الألماني إلى كيانه ودوره ، وسجل لوثر اسمه أول رجال النهضة في أوروبا . وأوروبا - أيها الأعزة لم تبلغ إلى ما هي فيه اليوم مصادفة ولا في سواد ليلة - إنما هي بناء ضخّم بنته حفنة من البواسل وأصحاب المواهب حجرًا حجرًا وأعلوه دورًا دورًا ، وأوروبا ولدت أمريكا وأستراليا وسادت الدنيا .. أتدرى ماذا كانت نتيجة موقف أحمد ابن حنبل عندما وقف في أول الطريق ؟ لقد ازداد تدهور الخليفة المتوكل وحواشيه حتى أصبح من أسوأ وأفسد من عرف التاريخ من الخلفاء ، والجماهير التي كان يستطيع أن يقودها في طريق البناء تحولت إلى جماهير تخريب ، وحجر على الفكر ومطاردة لكل صاحب رأى ، لقد حسبت الجماهير أن الحنبلية معناها الجمود ؛ لأن أحمد بن حنبل وقف وجمد وتجمعوا عصابات في بغداد عرفت بالحشوية أصبحت تهاجم كل من قيل إنه يخالف ابن حنبل وتقتله وتنهب داره .

لقد نجا أحمد بن حنبل وحده ، أما نحن ففرقنا ؛ لأن الأمة التي كانت تعاني بدايات المرض أصيبت بنكسة ، والمريض إذا انتكس ولم يجد من يعالجه تدهور وسار إلى طريق الموت والبداية الطيبة أصبحت نهاية سيئة وأنت عندما تسأل : ماذا دهي أمة العرب ؟ فهذه بداية الجواب وسأتيك في الفصل التالي بما يزيدك بصيرة .

* * *

obeikandi.com

الطريق إلى الماضي

كان أحمد بن حنبل عمره كله رجلاً متقللاً من الدنيا ، وكان قبل المحنة يجلس مع أصحابه ويقرأ على تلاميذه ، أو يذاكر أهل الحديث فيما جمعوا منه ، ويناقشهم مع الصبر الطويل ، وكان العصر كله (١٥٠ - ٢٥٠ هـ / ٧٦٧ - ٨٦٤ م) أزهى عصور جمع الحديث وكتابته ، وكان أحمد بن حنبل رابع أربعة اجتهدوا في جمع الحديث في ذلك العصر ، والثلاثة الآخرون هم : محمد بن إسماعيل البخارى ، وإسحاق بن راهويه ، وأبو عيسى الترمذى ، ولكنه بعد المحنة تنسك واعتزل وتجهم للدنيا وواصل الصيام ، فكان يسرد الصيام الأيام العشرة لا يأكل فيها شيئاً حتى هزل وضعف واعتل ، وما أمر الله ورسوله بالزهد أو سرد الصيام ولكنها رهبانية فرضها أولئك الرجال على أنفسهم فأضروا بها وبالناس أيضاً . وأحمد بن حنبل الذى كان قبل المحنة من أيسر الناس في فتاواه ، أصبح بعدها لا يطيق سماع أحد وإذا كان هذا نتيجة المحنة التى مر بها وأثرًا من آثار صيامه وزهده في الطعام فإن الله لا يرضى أن يطول صيام الرجل حتى يعتل بدنه .

وإذا كان الناس في حاجة إلى فقه أحمد فقد كانوا أحوج إلى وجوده بينهم ورؤيته يروح ويغدو ويلقى درسه ويأكل ويشرب ، فإن الزمان كان قد مال ميلاً شديداً واحتاج الناس إلى من يعلمهم كيف يشقون طريقهم وسط المتاعب ، ومهما حدث فقد كان ولا بد أن تعيش أمة الإسلام ليعيش بها الإسلام ، وقد رأينا في حديثنا الماضى كيف أن الأمة كانت في عافية ما تزال ، فهى تقبل على الجهاد عن عزيمة واستعداد للشهادة عظيم ، فما بالك برغبتها في الحياة الآمنة الرخية ، وقد خلق الله الناس ليعيشوا لا ليموتوا ، والدين لهذا ينبغى أن يكون طريقاً إلى الحياة الفاضلة ودليلاً لها ولا يصح قط أن يتخذة الناس طريقاً إلى الموت ، والفقه ينبغى أن يكون منهاج حياة لا سبيلاً إلى الموت ، وكتب الفقه لا بد أن تكون كتب حياة لا كتب موتى ، جاء في سيرة أحمد بن حنبل : جاء « الوزير يحيى بن خاقان يزور أحمد بن حنبل — فجعل يخوض في الطين في زقاق أحمد حتى بيته ، وعلى البيت ستر هو قطعة خيش ، أما صاحب البيت فعليه كساء مرقوع فأقرأه سلام أمير المؤمنين (المتوكل) وأنبأه أن يسأل الله الدعاء له وأنه بعث إليه ألف دينار

يفرقها على ذوى الحاجات فلم يقبلها (رواه عبد الحليم الجندى ، أحمد بن حنبل ص ٤٤٦) . فأما رفض مال السلطان فقد فهمناه ، فما معنى هذا التعذيب كله للنفس والبدن ، ألم يمه رسول الله ﷺ عن مثل ذلك صاحبيه سعيد بن زيد بن نفيل ، وعثمان ابن مظعون ، واقرأ هذا الخبر من سيرة ابن حنبل يرويه الحافظ الذهبي : وعن المروزي قال : أنبهني أبو عبد الله (أحمد بن حنبل) ذات ليلة وكان قد واصل (الصيام) فإذا هو قاعد فقال : هو ذا يدار بي من الجوع (أى إنه كان يشعر بدوار) فأطعمني شيئاً ، فجنثه بأقل من رغيف فأكله قال : لولا أنى أخاف العون على نفسى ما أكلت ، وكان يقوم من فراشه إلى (المخرج) الباب فيقعد يستريح من الضعف والجوع ، وحتى إنى كنت لأبل الخرقه فيلفها على وجهه لترجع إليه نفسه حتى أوصى (كتب وصيته) من غير مرض (بتحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر ص ٧٠) .

فقيم والله كان عذاب النفس هذا ؟ والدين يسر لا عسر ، وكيف يأتى الناس برجل يموت تحت أعينهم وهم أحوج إلى رجل يعيش فيهم ليتعلموا منه كيف يعيشون حياة فاضلة ، واسمع إلى أحمد بن حنبل يقول في سيرته التى رواها الحافظ الذهبي بعد السند ، سمعت أحمد بن حنبل يقول (ص ٣٠) : أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه الصحابة وترك البدع وترك الخصومات والجلوس مع أصحاب الأهواء وترك المرء والجدال ، وليس فى السنة قياس ولا يضرب لها الأمثال ولا تدرك بالعقول ، والقرآن كلام الله غير مخلوق ، وإنه من الله ليس بباطن منه ، وإياك ومناظرة من أحدث فيه .. فكأن السنة هنا هى الجمود فإن الزمان لم يتوقف بعد عصر الصحابة ولا بد أن ظروفها جديدة تجيء ولا بد للمسلمين من أن يعيشوا زمانهم فى حدود ما أمر الله به ، وما نهى الله عنه ، والبدعة فى عرف فقهاء تلك العصور هى رفض الاعتراف بأى شىء ظهر بعد العصر النبوى فكيف لا يستخرج الناس من الأحكام ما يحلون مشاكلهم على ضوء من القرآن والسنة وكيف يقال : ليس فى السنة قياس إذا كان علينا أن نلتمس لأنفسنا سبيلاً فى ظروف تتجدد كل يوم فى ضوء القرآن والسنة ؟ وكيف لا تضرب للسنة الأمثال إذا كانت الأمثال من فعل الرسول ﷺ وأصحابه نماذج يحتذىها الناس فى حل مشاكلهم التى تظهر كل يوم وتفرض نفسها مع ظروف الزمان المتغيرة ، قلنا لا معنى أو فائدة ترجى من الجدل فى أشياء لا طائل وراءها كالتساؤل عما إذا كان القرآن قديماً أو مخلوقاً ، فإن القرآن هو كلام الله وهو بين أيدينا نؤمن بكل كلمة فيه ونأخذ بما يأمرنا

به ونقف عند ما ينهانا عنه ، ونستضيء بهداه في حل كل ما يلقانا من مشاكل كل يوم ، وهذا حسبنا وأى خير يتأتى من السؤال عما إذا كانت صفات الله هي ذات الله أو هي شىء ينفصل عنها فإن الله سبحانه هو الحى الخالق ولا إله غيره وهو ربنا حسبنا وهو القوى العزيز العليم الخبير الرحمن الرحيم إلى آخر أسمائه الحسنى التى وصف نفسه بها ، فما حاجتنا إلى التساؤل عما وراء ذلك ، وما عدا ذلك فهباء وسفسطة ، وفى حدود هذا كله لا بد أن نعيش ، وأئمة الإسلام ينبغى أن يسيروا بنا فى طريق الحياة لا فى طريق الموت ، وأحمد بن حنبل قبل المحنة كان رجلاً مستبشراً يقعد للطلاب ويصبر على الدرس فإذا آتس من أحد من إخوانه أو تلاميذه علماً صحيحاً وفتانة وأمانة أخذ عنه ، وأنت تقرأ مسنده فتجد فى اختياراته من الأحاديث ذكاء وحسن تقدير واستقامة ميزان لا تجدها عند غيره ، وأنا ألتمس فى مسنده الأحاديث ذات المعنى الحضارى فأجد منها عنده أكثر مما أجد عند غيره ، هذا إلى عناية تامة بالنظافة وحسن المظهر ، قال ابن أبى حاتم : ذكر عبد الله بن أبى عمر البكرى قال : سمعت إسماعيل الميمونى قال : ما أعلم أنى رأيت أحداً أنظف ثوباً ولا أشد تعاهداً لنفسه فى شاربته وشعر رأسه وشعر بدنه ولا أنقى ثوباً وشدة بياض من أحمد بن حنبل (سيرة أحمد بن حنبل للحافظ الذهبى ص ٢٥) فتغير ذلك كله من بداية المحنة إلى نهاية حياته ، ولم تبق فى ذاكرة الناس منه إلا الرجل الجهم الصارم الزاهد فى الدنيا والناس والمتفرد بنفسه ، وكان الناس فى حاجة إلى عكس ذلك منه ، فإن الزمان كان فى تدهور والأحوال تسوء والأمة كانت بحاجة إلى من يقودها فى طريق الحياة والقوة والخلاص ، وأيام الواثق والمتوكل بالذات (من ٢٢٧ - ٢٣٢ هـ ومن ٢٣٢ هـ - ٢٤٧ هـ / ومن ٨٤٢ - ٨٤٦ م ومن ٨٤٦ إلى ٨٦١ م) كانت أيام محنة أى محنة للأمة كلها ، لقد كان بناء أمة لا تزال بخير ، والقلوب عامرة بالخير والاستبشار والقوة والاستعداد للوقوف فى وجه الظلم والتدهور والفساد وكان الشعب العربى القوى فى حاجة إلى زعيم يقودهم فى طريق الإصلاح فلم يجدوه وظهر أن أحمد لم يكن رجل الموقف ، وليس هذا عتباً منا عليه فهذا هو طبيعه واستعداده والتاريخ علم حقائق لا تمنيات ، فقد كان رجل آخرة لا دنيا وآخرة ، ومن ماثور كلماته ، « أما بعد فإن الدنيا داء والسلطان داء والعالم طبيب فإذا رأيت الطبيب يجر الداء إلى نفسه فاحذره والسلام » فى مثل هذا الموقف قال مارتن لوثر ما معناه : البابا داء والامبراطور داء والعالم طبيب ولهذا فأتصدى للعلاج وسأخوض المعركة لكى يعيىش الناس ، وكانت

الظروف فعلاً محتاجة إلى زعيم يقود الناس ، فقد كان المعتصم قد أسقط العرب من الديوان أى أخرجهم من جيوش الدولة ، وهذا أمر عجيب لم يسمع بمثله ، وهل تتصور مثلاً أن يصدر قرار بحرمان المصريين من الخدمة العسكرية في جيش بلادهم ، وتقتصر على غير المصريين وكان هذا القرار شرّاً من بدايته ؛ لأن العرب عصب الدولة وبنائة مجدها ، وإذا كانوا قد تغيروا على الخلفاء ، فإن ذلك كان بسبب مظالم هؤلاء وسوء تدبيرهم للأمر ، ولم يكن العلاج إخراج العرب من الجيش وشراء الألوف من الأتراك واستخدامهم في الجيش وشئون الدولة ؛ لأن هؤلاء مرتزقة أجلاف لا تصلح بهم دولة عربية فكانت النتيجة أن العرب المحاربين الذين طردوا من الجيش تحولوا إلى ثوار على الدولة ، وقام في شمال الجزيرة والحجاز بنو هلال بن عامر بن صعصعة وبنو سليم ابن منصور ، وتولى رجل يسمى أحمد بن نصر الخزاعي ثورة عرب بغداد على الخلافة وجندها ولم يكن هذا الرجل جاهلاً ولا جلفاً إنما كان عربياً ثائراً ذا رأى وعزة وكرامة ، وكان على صلة بنفر من أكابر رجال العلم والحديث من أمثال يحيى بن معين ، وابن أبي خيثمة أحمد بن زهير بن حرب ومن في طبقتهم ، وكان هذا الرجل يقول في الخليفة الواثق الذى خلف المعتصم هذا الخنزير أو هذا الكافر ، وكان والد هذا الرجل ممن قاموا ضد المأمون عندما قتل أخاه وأقاموا شبه حكومة ببغداد عندما كثر اللصوص بها وعندما دخل المأمون بغداد سنة ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م سكنوا ورجوا أن يكون منه خير ، واجتهد هذا الرجل وأحمد بن نصر بن مالك الخزاعي في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأنكر القول بخلق القرآن (سنة ٢٣١ هـ) ولكن جند الخليفة الواثق قبضوا عليه وعقد الخليفة مجلساً للنظر في أمره ورأس المجلس أحمد بن أبي دؤاد القاضى وأنصاره فقال واحد منهم : هو حلال الدم . وقال آخر : اسقنى دمه يا أمير المؤمنين ، وانتهى الأمر بأن نهض الخليفة الواثق وقتل الرجل حسبة لله تعالى (الطبرى ٩ / ١٣٥ وما يليها) .

واتسع نطاق ثورة العرب وشملت ديار كندة وربيعة وبنى كلب بن وبرة في الشام ، ولكنهم كانوا محتاجين إلى زعيم يقودهم فلم يجدوا ، وانكسرت شوكة الثائرين وانتهى أمرهم على يد رجال الخليفة وتلك هى الظروف التى كان الناس فيها محتاجين إلى زعامة رجل من طراز رجال العصر الراشدى ، وكان أصحابنا رؤساء الأمة وهم الفقهاء

والعلماء يرون هذا كله ولا يشعرون أنه يفرض عليهم واجباً حيال أولئك الناس إنما حسبهم أن يقرأوا على الناس أخبار الصحابة وصلابتهم في الحق وجهادهم في سبيل الحق والإسلام ، ولو وقف واحد منهم محتجاً على هذا الفساد كما وقف مارتن لوثر لوجد ألاف الرجال مستعدين لنصرته وإقامة ميزان العدل وتصحيح مسار الدولة كله ، وكما قام أنصار لوثر باختطافه وحمايته فتشجع وسار في طريقه ووقعت الثورة الحاسمة على ركني الفساد إذ ذاك وهما البابوية والامبراطورية ، فقد كان من الممكن جداً لواحد من هؤلاء الفقهاء الذين كانوا لا يكفون عن القول بأن الإيمان قول وعمل لم يشعروا أن هنا واجباً يناديهم وتركوا الفساد يستشري وضاع الأمل . فهل تتعجب أن ينضم بنو هلال بن عامر بن صعصعة وبنو سليم بن منصور إلى حركة القرامطة وهي حركة شيعية مخربة قامت واشتد بلاؤها في شمال جزيرة العرب خلال القرن الهجري الرابع واركتب أصحابها من الأفاعيل ما لا يصدق حتى إنهم هاجموا مكة واقتحموا الحرم الشريف وسرقوا الحجر الأسود ومضوا به إلى البحرين حيث ظل في حوزتهم قرابة العشرين عاماً حتى استرده منهم الخليفة الفاطمي العزيز الذي خلف المعز لدين الله في مصر ، وجماع القول في أحمد بن حنبل ما قاله فيه أبو داود صاحب كتاب السنن : كانت مجالس أحمد مجالس الآخرة لا يُذَكَّرُ فيها شيء من أمر الدنيا ، ما رأيته ذكر الدنيا قط .

وإذا كان أهل السياسة قد خرجوا عن المنهج خروجاً تاماً وانصرف الصالحون من أهل العلم إلى الآخرة فمن أين يمكن أن ننتظر الإصلاح ، وهل الإسلام دين آخرة فحسب ؟ وهل سنة رسول الله ﷺ هي مباحة الدنيا وإهمال شئونها وتوجيه الجهود جميعاً إلى الآخرة ؟ إذن فقيم كان جهاده ﷺ وصبره وشجاعته وإقباله على الناس يعلمهم ويؤدبهم ويدلهم على طريق الصلاح في الدنيا إذ لا صلاح لآخرة الناس إلا بصلاح دنياهم ؟ وكيف ننتظر من الناس الصلاح والتقوى إذا كانوا جياًعاً عريانين مهددين بالأخطار والمظالم ليل نهار ، بل من يدلهم على طريق الخير إذا كان أعظم الفقهاء قد تحولوا إلى أهل عبادة منقطعين عن الناس وكانهم رهبان بوذيون في معابد ؟ وماذا ينفع الناس أن يقول رجل يسمى الخلال : سمعت رجلاً من خراسان يقول : عندنا أحمد بن حنبل يرون أنه لا يشبه البشر ، يظنون أنه من الملائكة .

كان أحمد بن حنبل رجلاً عظيماً ومذهبه جليلاً ، ولكن التطبيق لم يكن سليماً فلم يستطع المذهب القيام بحركة نافعة للناس إلا بعد زمن طويل عندما تنبه محمد بن عبد الوهاب في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي إلى أن العلم لا تتم فائدته إلا بالعمل ، ولا صلاح لآخرة الناس إلا بصلاح دنياهم ، فانضم إلى الشيخ الإمام محمد بن سعود والاثنان معاً قاما بالحركة الوهابية التي كانت خيراً عظيماً للعرب والإسلام جميعاً ، وكل ما نراه اليوم من معالم الرخاء والنهوض والعمران وإصلاح أحوال الدنيا في جزيرة العرب إنما هو نتيجة للتطبيق العملي لمبادئ عظيمة وضعها الفقهاء وانتهت ذروتها عند أحمد بن حنبل ، ولكن أحمد وأصحابه لم ينفعوا الناس في أيامهم ، وصارت الحنبلية عند العلماء خشونة وجموداً ، يقول في وصفهم أبو الوفا بن عقيل : هم قوم خشن تقلصت أخلاقهم عن المخالفة ، وغلظت طباعهم عن المداخلة وغلب عليهم الجد وقَلَّ عندهم الهزل ، وعريت نفوسهم من ذل المرءاة وفزعوا من الآراء إلى الروايات ، وتمسكوا بالظاهر تخرجاً من التأويل وغلبت عليهم الأعمال الصالحة فلم يوفقوا في العلوم الغامضة ، بل وفقوا وأخذوا ما ظهر من العلوم وما وراء ذلك قالوا : الله أعلم بما فيها من خشية بارئها ولم أحفظ عليهم تشبيهاً (رواه عبد الحليم الجندی ، أحمد بن حنبل ص ٣١٢) .

وهذه الصورة انعكست بصورة سيئة عند جماهير الناس ممن لم يجدوا من يقودهم ويهديهم فتحولوا إلى قوة مخربة تهاجم دون رحمة أى إنسان يقال عنه إنه يفكر أو يبدي رأياً يخالف ما ظنوا أنه رأى أحمد وما كان لأحمد رأى ، إنما هو فيما يتصل بالتطبيق والتصرف - رجل نقل وتقليد - ومن أوائل القرن الرابع الهجرى أصبحت بغداد ضحية لشراذم من جهال الناس زعموا أنهم حنابلة وسماهم الناس الحشوية ، جعلوا دأبهم إرهاب الناس والعدوان على كل صاحب فكرة وقد حدث مثل هذا في تفاصيل الحركة اللوثرية ، فقد حدث أن تحمس الجمهور لآراء لوثر وأحسوا أن ثورته تفتح لهم باب الانتقام من ظالميه من رجال الدين والدولة وظنوه يدعو إلى الثورة على النظام واستعمال العنف وقادهم في ذلك نفر من المتحمسين للدعوة اللوثرية وانفجرت ثورة الفلاحين وقاموا بنهب قصور الأغنياء وتخريب المزارع فما كان من لوثر إلا أن تصدى لهذه الحركة فمضى يطوف بالولايات الألمانية يدعو الفلاحين إلى

الهدوء والسلام ونشر في مايو ١٥٢٥ رسالته المسماة : دعوة إلى السلام Ermahnung Zum Frieden ثم لم يلبث أن أعلن الحرب على العنف ودعا إلى إيقاف النهب ونشر رسالته المسماة : Wider die Rqrherischen und morderlischen Rotten Der Bauern (رسالة ضد الجماهير من القتلة للصوص من الفلاحين) مما يعطينا مثالا عن التصرف السليم الحازم للفقير العالم المصلح الذى يعلم أن الدين للدين وللدنيا والآخرة وأن الإيمان علم وعمل فعلاً لا مجرد كلام فى كتب تستظهر جموع الحنابلة الحشوية الجاهلة التى أصبحت حرباً على الفكر بل على الأمن نفسه ، لأن العلماء تخلوا عن قيادتها وقصروا فى واجبهم نحوها ؛ ولهذا هاجمت الجماهير بيت أبى جعفر محمد بن جرير الطبرى المؤرخ المفسر ٣١٠ هـ / ٩٢٢ م ؛ لأنهم اتهموه بالزندقة ، وفى هذه الظروف لم يعد هناك مكان لفكر أو أى شىء يشبه الفكر بل نصبوا أنفسهم حماة للدين على طريقتهم وهواهم وتعدوا على الناس وضربوهم ونهبوهم (انظر : ابن الأثير فى حوادث سنة ٣٢٢ هـ) .

ولا ينبغى هنا أن نقصر اللوم على الجماهير ، بل يتحمل العلماء جانباً كبيراً من المسئولية ؛ لأنهم لم يقوموا بواجبهم من التعليم والتوجيه وتركوا السلاطين فى فسادهم من ناحية وعامة الناس فى جهلهم من ناحية أخرى فازداد السلاطين فساداً وازداد العامة جهلاً .

* * *

فى هذا الجو الخائق ظهر الأشعرى وهو أبو الحسن على بن إسماعيل بن إسحاق الذى ينتهى نسبه إلى أبى موسى الأشعرى صاحب رسول الله ﷺ وهو رجل واسع الذكاء عظيم العلم ، ولكن حظه أراد له أن يشب ويدرس ويتصدى للتعليم فى عصر غلب عليه الجمود فقد ولد سنة ٢٦٠ هـ / ٨٧٣ م ، أى بعد وفاة أحمد بن حنبل بتسعة عشرة سنة ، وقد اتجه الفكر الإسلامى كله إلى الماضى وعاد أدراجه إلى الوراء كأنما هو قد وصل إلى آخر طريق الفكر البشرى ثم انكفاً عائداً إلى الماضى والحاضر كله لم يعد له وجود عند ابن حنبل بعد المحنة وزال

عنده كل مفهوم للمستقبل ، وأصبح همُّ المفكرين هو العودة إلى الوراء بحثاً عن العصر الراشدي وهيات .

ولد أبو الحسن الأشعري ونشأ في البصرة ، وكانت البصرة ما زالت موطن الاعتزال والمعتزلين وكان شيخهم أيام شباب الأشعري هو أبو علي الجبائي وخلفه في الرياسة ابنه أبو هاشم الجبائي ، وعلى هذين درس الأشعري وكان شاباً ذكياً قوى الذاكرة فلم يلبث أن ظهر أمره بين المعتزلة وأصبح من خيرة شبابهم ، ثم من كبار شيوخهم ، وكان المعتزلة بعد زوال عصر سلطانهم في عصر الخليفة المتوكل قد انطوا على أنفسهم وتدهورت آراؤهم ومناحي تفكيرهم وتمادوا في السفسطة والجدل حتى سألوا أسئلة بالغة السخف وردوا عليها بأجوبة أسخف مثل سؤالهم : هل يظل رسول الله رسولاً بعد موته أو تنقطع عنه صفة الرسول بموته ؟ ووقف بعضهم عند قوله تعالى ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ (الرحمن ٢٧/٥) فقال : إذن فعندما تقوم القيامة ويفنى الكون لا يبقى إلا وجه الله لا غير ، أما بقية الله فلا تبقى إلى غير ذلك من المسائل التي تدل على تدهور شديد في التخريف ، فما هذا بفكر على الإطلاق .

وبين هؤلاء المعتزلة عاش أبو الحسن الأشعري أربعين سنة كان فيها من أئمتهم وكبار رجالهم ، ولكنه عندما تغير الزمان وانكشفت حقائق الاعتزال وأقوال أصحابه وانصرف معظم المسلمين عنهم وانحصرت آراؤهم في دوائر مغلقة معظمها في البصرة أعاد الأشعري النظر في أمر نفسه فبدأ له أن الاستمرار في القول بآراء المعتزلة هباء لا يتحصل منه شيء ، وأن الخير في أن يعود إلى السنة وأهلها ليخرج من الحفرة التي حكم على نفسه بالعيش فيها ، وقرر أن يعلن الانفصال عن الاعتزال والعودة إلى السنة ولكنه فعل ذلك بطريقة لا تبعث على الثقة ، فانقطع عن الناس خمسة عشر يوماً خرج بعدها واتجه إلى المسجد وصعد المنبر وقال : معاشر الناس إنني إنما تغيبت عنكم في هذه المدة لأنني نظرت فتكافأت عندي الأدلة ولم يترجح عندي حق على باطل ولا باطل على حق فاستهديت الله تبارك وتعالى فهداني إلى اعتقاد ما أودعته في كتبي هذه ، وانخلعت من جميع ما كنت أعتقد كما انخلعت من ثوبي هذا ، وانخلع من ثوب كان عليه ورمى به ودفع الكتب إلى الناس والخبر على هذه الصورة يدعو إلى الشك ؛ لأنه يفهم منه أن أبا الحسن علي بن إسماعيل الأشعري عندما اعتزل الناس أسبوعين ألف خلالهما كتباً

جديدة في الفقه على مذهب أهل السنة ، وكما كتاب الله يؤلف الإنسان في خمسة عشر يوماً ؟ ثم إن خلعه ثوبه القديم المعتزلي لا يخلو من ظرف فإن هذا الثوب كان معتزلياً ، ولم يقل لنا صاحب الخبر إن كان أبو الحسن قد لبس أمام الناس ثوباً سنياً .

وهناك أخبار تقول : إن الأشعري رأى رسول الله ﷺ في منامه فشكا إليه شكوكه في مسائل الاعتزال فقال له رسول الله ﷺ : عليك بسنتي . قال : فانتبهت وعارضت مسائل الكلام بما وجدت في القرآن والأخبار (أحاديث الرسول وأخبار الصحابة والسلف الصالح) فأنبتته ونبذت ما سواه وراء ظهرى وإذا كان الأشعري قد ولد سنة ٢٦٠ هـ أو ٢٧٠ هـ فيكون هذا التحول الحاسم قد تم سنة ٣٠٠ أو ٣١٠ هـ / ٩١٢ م أو ٩٢٢ م ، أى قبل وفاة الرجل بأربع وعشرين أو أربع عشرة سنة ، لأنه توفي سنة ٣٢٤ هـ / ٩٣٦ م ، ويقول ابن خلكان في المادة التي اختصه بها - وهي ناقصة جداً - وكان أبو الحسن يجلس أيام الجمع في حلقة ابن إسحاق المروزي الفقيه الشافعي في جامع المنصور ببغداد (٢ : ٤٤٦) .

وأراد الأشعري أن يؤكد للناس صدق توبته فأعلن أنه يعود إلى السنة على مذهب الإمام أحمد بن حنبل فقال : « ديانتنا التي ندين بها هي التمسك بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ وما روى عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ، ونحن بذلك معتمدون ، وبما كان عليه أحمد بن حنبل - نصر الله وجهه ورفع درجته وأجزل مثوبته - قائلون ، ولمن خالف قوله مجانبون ، لأنه الإمام الفاضل والرئيس الكامل الذي أبان الله به الحق عند ظهور الضلال » .

وذلك كان خطأ الأشعري الأول فإن الناس لا تصدق هذا التحول الكامل - ١٨٠ - درجة كما يقولون - دفعة واحدة ، والحنابلة بالذات كانوا من أشد الناس شكاً وريبة في غيرهم فرفضوا توبته ولم يقبلوه ورموه عن قوس واحدة ، والخطأ الثاني أن الرجل عاد إلى السنة على طريقة المعتزلة أى أنه بعد أن كان متكلماً معتزلياً أصبح متكلماً سنياً أى أنه أراد أن يدفع عن السنة ويؤيدها بالمنطق والحجة والجدل مع خصومها ، والحنابلة لا يحبون الجدل ولا يرضون أن يكون مذهبهم موضع جدل ، إنما هو التسليم المطلق بلا سؤال أو مناقشة كما رأينا ، ولهذا فقد قال فيه أبو الفرج ابن الجوزي وهو من أئمة

الحنابلة : إن الأشعري ظل على مذهب المعتزلة زماناً طويلاً ثم تركه وأتى الناس بمقالة (رأى) خبط بها عقائد الناس .

وقد أخطأ الحنابلة في موقفهم هذا من الأشعري فقد كان الرجل بعد تحوله صحيح الاعتقاد في السنة وكلامه كما يتجلى في كتابه الأشهر « مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين » يدل على ذكاء واسع وفهم دقيق وإلمام بالإسلام ومذهب أهله عظيم ، ومذهبه في التدليل على حقيقة الإسلام وصحة عقائده يعجب الرجل الذكي الذي يريد أن يسند إيمانه إلى فكر ومنطق ، ولهذا فإن الناس مع الزمن الطويل تبينوا فضل الأشعري وما يمتاز به بين رجال الفكر الإسلامي من صفاء ذهن واستقامة منطلق وصحة اعتقاد ، ولكن ليس من الصواب أن يقال : إن الأشعري إمام من أئمة السنة لأنه لا يرقى قط إلى مستوى الأوزاعي أو مالك بن أنس أو أبي حنيفة أو أحمد بن حنبل إنما هو مفكر صاحب طريقة في المنطق والاستدلال ، ومن سوء حظه أنه جاء بعد انحدار شمس الفكر الإسلامي إلى المغيب ، وقد استدار الناس للشمس وكروا عائدتين باحثين عن الغد في الأمس ، فلم يكن لدعوته صدى يذكر وإن كنا نحن نجد في كلامه متعة وفائدة لأننا على طريقته نحب أن نستند إلى العقل إلى جانب العاطفة ، وهذا المذهب أشبه بالإسلام وأليق بالمسلم ، لأن القرآن - كلام الله - كتاب عقل وفكر ودعوة إلى الإيمان بالنظر والتأمل والاستدلال .

ومن أكابر تلاميذ الأشعري الباقلاني وهو أبو بكر محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر ، ولم يذكر أحد لنا سنة مولده أو سنة وفاته ولكنه على أي حال ظهر وعرفه الناس وأخذوا عنه خلال القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي وقد اشتهر بأرائه في مجلس عضد الدولة البويهى أمير الأمراء وصاحب الأمر في دولة الخلافة فيما بين شوال ٣٧٢ هـ / أبريل سنة ٩٨٣ حتى رمضان سنة ٣٧٦ هـ / يناير ٩٨٧ م ، وكانت عاصمته شيراز لأنه كان رجلاً فارسياً ديلمياً شديد العصية لجنسه واسمه فناخسرو ويلقب بأبى شجاع ، وكان حاكماً ظالماً متطاولاً على أموال الناس ودمائهم ، وسيرته تدل على أنه كان لصاً بل قاطع طريق ، ولكن ذلك لم يمنع شاعرنا العظيم أبو الطيب المتنبي من أن يمدحه بقصيدة يقول فيها :

وقد رأيت الملوک قاطبة وسرت حتى رأيت مـولاهـا
ومن منایاهم براحتـه یامرہا فیہم وینہاہا
أبا الشجاع بفارس عضد الـ دولة فناخسرو شہانشاہا
أسامیالم تزده معرفة وإنما لذة ذکرناہا

والباقلانی مشهور عندنا بكتاب « إعجاز القرآن » وهو كتاب جيد يدل على علم واسع وفكر رائق ولكنه لا يكفي لتبرير المكانة الكبيرة التي يحتلها الرجل في تاريخنا الفكري ولكنه دون شك كتاب عظيم ، بمعيار عصره وفي حدود مستوى العلم في بدايات عصر الركود والجمود ، وإليك دليلاً على عقلية الفقهاء في بدايات عصر الجمود هذا فقد كان من شيوخ الباقلانی رجل يسمى أبا الحسن الباهلی البصری وهو من أصحاب الأشعری أى أنه معدود في جملة المتفتحین فاقراً عنه هذه الحكاية التي يحكيها تلميذه أبو بكر الباقلانی الذي نحن بصددہ « كنت أنا وأبو إسحاق الأسفرايينی وابن فورك معاً في درس الشيخ الباهلی وكان يدرس لنا في كل جمعة مرة واحدة ، وكان منا في حجاب يرخى الستر بيننا وبينه كى لانراه وكان من شدة اشتغاله بالله مثل واله أو مجنون لم يكن يعرف مبلغ درسنا حتى نذكره ذلك » ، ويعلق الأستاذ الجليل الشيخ السيد أحمد صقر محقق (إعجاز القرآن الطبعة الرابعة القاهرة ١٩٧٧ ص ١٨) ، ولم يكن الباهلی يحتجب عن هؤلاء الثلاثة فقط ، بل كان يحتجب عن كل الناس حتى عن الجارية التي كانت تخدمه .

وقد سأله تلاميذه في أول عهدهم به عن سبب إرساله الحجاب بينه وبينهم فقال :
إنكم ترون السوقة وهم أهل الغفلة فتروني بالعين التي ترون أولئك بها ، فتأمل والله هذا الشيخ الذي بلغ به الغرور أن يرفض أن يراه تلاميذه بعيونهم التي يرون بها السوقة وهم عامة الناس مثلي ومثلك فيندس بهاء خلقته الجميلة ثم يقولون لك إنهم أهل سنة وعلم ودين ، ترى ماذا كان الرسول ﷺ يقول في هذا الرجل الذي فاق بغبائه وغفلته أئمة الكفر في مكة الذين رفضوا الجلوس إلى جانب المستضعفين ممن كانوا يرون أنهم سوقة منحطون عنهم من أمثال خباب بن الأرت الحداد وبلال الحبشى .

إلى أين وصلنا !؟

obeikandi.com

أَبُو حَامِدِ الْغَزَالِيِّ

يَفْتَحُ لِلنَّاسِ أَبْوَابَ عَالَمِ الْقُلُوبِ

في الطريق إلى الغزالي تلقى علماً من أعلام الفكر الإسلامي جدير منا بوقفة طويلة - لولا ضيق المقام - فقد كان آية في صدق الإيمان وسعة العلم ودقة الفهم ، وهو الجويني عبد الملك بن عبد الله بن يوسف المكنى بأبي المعالي والملقب بإمام الحرمين (١٨ محرم ٤١٩ - ٢٥ ربيع الآخر ٤٧٨ هـ / ١٧ فبراير ١٠٢٩ - ٢٤ أغسطس ١٠٨٥ م) الذي كان بحق أعظم من ظهر من فقهاء الشافعية قبل أبي حامد الغزالي ، وهو بالفعل أنجب أبناء المذهب وأكثر من أفاد من الإمام الشافعي في علم الأصول ، وهو صاحب تأليف كثيرة أهمها « كتاب البرهان في أصول الفقه » وهو الكتاب الثاني في تاريخنا الفكري الذي يحاول أن يضع للمسلمين منهجاً في التفكير العلمي في نفس الخط الذي سار عليه الشافعي في « الرسالة » ، وعندما نقرأ كتاب « البرهان » نعجب بأبي المعالي إمام الحرمين الجويني ، ولكننا نعجب أكثر بمحمد بن إدريس الشافعي الذي قال في الرسالة وتقع في أقل من مائة صفحة - أكثر مما قال الجويني في ستة أضعاف هذا القدر أو سبعة ، وهنا - عندما نضع الكتابين أحدهما إلى جانب الآخر - نلمس بيدنا معنى الإمامة في العلم ومن يستحقها عن جدارة بها ، ويتجلى لنا الشافعي في مكانه الصحيح وقدره العظيم .

ولد الجويني في نيسابور وشبَّ ونشأ أيام السلطان السلجوقي طغرل بك ، وقد انقضت أيام البويهيين وما عرفه أهل العراق وفارس في أيامهم من بشاعات وشناعات ، وجاء السلاجقة أهل السنة فعز الشيوخ في أيامهم واستعادت الخلافة العباسية بعض مكانتها الزاهية ، وظهر جيل جديد من شيوخ السنة منهم : أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي ، وأبو إسحاق إبراهيم بن محمد الأسفراييني . وأبو نعيم الأصفهاني ، وأنشأ الوزير نظام الملك المدرسة النظامية في نيسابور ، وأنشأ أخرى على مثالها في بغداد ، وطاف الجويني بمراكز العلم يتعلم ويدرس حتى ألم بكل علوم أهل السنة في عصره وظهرت منه نجابة وامتياز وأصبح في طبقة الشيوخ وهو بعد في بداية كهولته . وجلس للتدريس في المدينة ومكة . ومن هناك اشتهر أمره وحمل لقب إمام الحرمين وأقبل على

التأليف وكان أحسن ما ألف هو كتاب « البرهان » وقد أراد أن يضاهى به الشافعى فى « الرسالة » وقد أجاد فيه وتناول كل مسائل أصول الفقه بتفصيل وإسهاب ولكنه لم يأت فيه بجديد ، والميزة الكبرى له أنه يأتى فى الموضوع الذى يتحدث عنه بتعريف له ثم رأى أهل السنة ورأى المعتزلة ثم رد المتكلمين من أهل السنة على المعتزلة ، ويهتم اهتمامًا خاصًا برأى الأشعرى إذ هو أكبر المتكلمين على مذهب أهل السنة ثم يأتى برأيه هو فى النهاية .

ومما يستوقف نظرك عندما تقرأ هذا الكتاب الجيد هو أنه — من حيث صميم المسائل — لا يزيد شيئاً على ما عند الشافعى ، والشافعى توفى على ما نعلم سنة ١٥٠ هـ / ٧٦٧ م ، ونحن الآن حوالى ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م ، فكأن ثلاثة قرون مرت دون أن يخطو العلم خطوة واحدة إلى الأمام ، وأمر آخر يسترعى انتباهك وهو أن الواقع أو الحاضر لا وجود له عنده فهو ينظر دائماً إلى الماضى ويستلهم الأفكار منه ، والأمثلة التى يضربها كلها من الماضى ومن العصر النبوى وعصر الصحابة فحسب كأن الزمان توقف هناك ، فلا تظفر هنا بمسألة واحدة من عصر الجوينى ولا كلمة تدلك على عصره وظروفه ، فالماضى وحده هو الحاضر ومسائل الماضى وحدها هى المسائل الجديرة بالاعتبار أما المستقبل فلا وجود له أصلاً ، والغاية الكبرى هى أن تتجمد الحياة كلها على الصورة التى كانت عليها فى أوائل العصر الراشدى حتى تقوم الساعة وينتهى الزمان ويوضع الميزان ويقوم الحساب ، وهذا هو الذى يجعل هذا الفكر كله قليل الفائدة لنا فى مسائل الحياة : إنه فكر عظيم بمفهوم عصره وفى إطار الماضى والذين يدرسونه يفعلون ذلك لقيمته الفقهية دون أى حساب للزمان أو حياة الناس .

ومن أمثلة المسائل التى يتعرض الجوينى لها ويناقشها : الصحابى إذا روى خبراً وعمل بخلافه فهل يؤخذ بقوله أو بفعله ؟ ويقول إمام الحرمين : إن الشافعى يرى هنا أن العبرة بروايته لا بعمله ، أى بقوله دون عمله ، والشافعى هنا يريد أن يمحو من الوجود أى أثر لما وقع بين الصحابة من اختلافات ومنازعات بل حرّوب وهو لهذا ينصح بأن نأخذ بكلام الصحابة دون عملهم ؛ لأن كلامهم كله حسن ، أما أبو حنيفة فيتمشى مع طريقته فى التفكير الواسع ويقول : إنه مادام العمل مخالفاً للقول فلا يؤخذ بالقول ولا عبرة بالعمل طبعاً ، أما رأى الجوينى هنا فهو أننا مهما رأينا من عمل

الصحابي فلا بد أن نحمله على الورع والتعلق بالأفضل وإن ناقض عمله روايته مع ذكره لها ، ولم يحتمل محملاً في الجمع (أى إذا لم نستطع التوفيق بين القول والعمل) فالذى أراه التعلق بروايته فإنه لا يظن بمن هو من أهل الرواية أن يعتمد مخالفة ما رواه إلا عن ثبت يوجب المخالفة (انظر : البرهان في أصول الفقه بتحقيق د / عبد العظيم الديب ١ / ٤٤٢ وما بعدها) .

وعندما يتعرض الجويني لمسألة تحتاج إلى حل مبتكر ينير للناس الطريق تجده يسترسل في استعراض آراء الماضين ، ومثال ذلك مناقشته لموضوع الإجماع (١ / ٦٧٠ وما بعدها) فبدلاً من أن يقترح اقتراحاً نافعاً مثل إنشاء مجمع لعلماء السنة من أهل الأقطار الإسلامية يجتمع مرة في السنة في موسم الحج مثلاً ويشترك فيه من يتيسر له الحضور من شيوخ العلم حيث يتبادل الناس الرأي وهو ما قال به الأشعري ، تجده يستعرض آراء الماضين في الموضوع بادئاً بنقض رأى الأشعري وننتهي آخر الأمر كما بدأنا والمسألة تبقى على حالها .

وجدير بالملاحظة هنا أن مفهوم العلم عند عامة علماء المسلمين حتى العصر الحديث هو العلم الديني أى القرآن والسنة وما قاله الأئمة في مسائل الفقه ، أما علوم المعاش فقل أن يعنى بها أحد منهم ، وإذا هو عنى بشيء منها مثل الطب كان ذلك مقللاً من قدره بين أهل العلم والفقه ، وسنرى عند كلامنا عن الفلاسفة أن اشتغال الكندي بالرياضيات كان عيباً أخذ عليه وبسببه أودى ونهبت داره وأخذت كتبه ، وابن سينا وهو من مفاخر الفكر العالمى لا مكان له عند أهل الفقه والعلم ، أما ابن رشد فإن الذين مدحوه من أسلافنا استحسنا أن يسقطوا من الذكر اشتغاله بالفلسفة وشرحه أرسطو ؛ لأن ذلك يحط من قدره وقد عوقب الرجل على ذلك فعلاً وأمر أبو يعقوب يوسف المنصور الخليفة الموحدى الناس بأن يبصقوا في وجهه عقاباً له على اشتغاله بالفلسفة .

وفي مدرسة أبى المعالى إمام الحرمين الجويني تكوّن أبو حامد محمد بن محمد الطوسى الغزالي ، فقد ولد في طوس (٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م) وفيها نشأ وتعلم ثم رحل إلى نيسابور حيث درس على الجويني وأعجب به وأخذ عنه طريقته في التفكير والنظر إلى الحياة واستقلال الفكر ورفض التقليد - أى اتباع شيخ من الشيوخ السابقين ومحاكاته

دون تفكير - وعندما توفي الجويني سنة (٤٧٨ هـ / ١٠٨٥ م) كان الغزالي قد أتم تعليمه ودرس الأصول ، وجدير بالذكر هنا أن أصول العلم في تلك العصور كانت قليلة يحيط بها الطالب الذكي في سنوات قليلة ، فهي القرآن وتفسيره وكتب الحديث المعتمدة وأهمها الصحيحان للبخاري ومسلم ، ثم جامع الترمذي ، ومسند أحمد بن حنبل ، وسنن أبي داود مع شيء من العربية والنحو ، وهذا حسبك إلا إذا أردت التخصص في أحد علوم الدين كالتفسير والقراءات أو الحديث ، فهنا عليك أن تقرأ كل ما كتب في ناحية تخصصك ، والغزالي لم يشأ أن يتخصص في شيء ؛ لأنه لم يرد أن يكون محدثاً أو فقيهاً أو قاضياً أو صاحب وظيفة ، فهو نفس حرة مطلقة يدرس العلم للعلم ويريد أن يكون أستاذاً فكان أستاذاً ، وقعد يقرأ العلم على الناس مكان شيخه الجويني وهنا تجلى للناس عن عقل ذكي وقلب بالغ الحساسية وروح شفافه وخلق مستقيم كالسيف وتسامع به الناس فدعاه الوزير نظام الملك للتدريس في المدرسة النظامية في بغداد .

ونظام الملك هذا شخصية عجيبة من شخوص عالمي الفكر والسياسة في ذلك العصر المضطرب ، وهو عصر السلاجقة الأتراك الذين حلوا في سيادة دولة الخلافة محل البويهيين وهؤلاء الآخرون من صعاليك الفرس ، من فرع من فروع أهل الجبال منهم هم الديلم ، ومواطنهم جنوبي بحر قزوين وقاعدتهم الري كانت تقوم مقام طهران الحالية ، وكانوا شيعة يسترنون عقائدهم ليسودوا دولة الخلافة وكانت فترة سيادتهم من (٣٢٢ - ٤٤٤ هـ / ٩٤٤ - ١٠٥٢ م) من أسود فترات تاريخ الشرق الإسلامي فهم عتاة ظلمة جهلاء يتظاهرون بالعلم ، فلما ذهبت دولتهم وحل محلهم السلاجقة - وهم سنيون - اجتهدوا في إعادة السنة إلى مكانها وأنشأوا مدارس لشيوخ السنة ليزيلوا آثار العبث البويهي ، وأكبر هذه المدارس كانت النظامية التي أنشأها نظام الملك هذا ، وهو أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي وهو معاصر للغزالي فقد ولد في قرية مجاورة لطوس سنة (٤١٠ هـ / ١٠١٩ - ١٠٢٠ م) ودخل في خدمة السلاجقة من أول أمرهم وأصبح وزيراً لأعظم ملوكهم وهو ألب أرسلان الذي كسب للإسلام نصراً من أعظم انتصاراته على الروم البيزنطيين في موقعة مانزيكارت التي تعرف في تاريخنا باسم ملاذكرد ، وافتتح بذلك عصر النهوض العسكري الإسلامي في الشرق الذي بلغ ذروته أيام الأتراك العثمانيين ، وألب أرسلان قتل سنة (٤٦٥ هـ / ١٠٧٢ م) وخلفه ابنه طغرل بك واستمر نظام الملك وزيراً له وأصبح السيد المطلق في

دولة الخلافة لأن طغرل بك عندما تولى كانت سنه ١٨ سنة هجرية وأصبح نظام الملك يلقب بأتا - بك والأتابك أى خال الأمير أو الوصى عليه ومدير شئون الدولة باسمه ، وقد نجح نظام الملك في إقرار مذهب السنة ودخل لهذا السبب في منازعات وعداوات مع غلاة الشيعة مما انتهى باغتياله على أيدي جماعة سرية تسمى بالإسماعيلية الحشاشين في العاشر من (رمضان ٤٨٥ هـ / ١٤ أكتوبر ١٠٩٢ م) وخلف لنا كتاباً متوسط القيمة في الإدارة يسمى سياسة نامه أى كتاب السياسة .

ورغم جهود نظام الملك فقد ظل الجو السياسى مضطرباً مكفهراً ، وفي كل يوم يقتل وزير أو أمير وتدون معارك ويهلك الناس والحقيقة أن الخلافة العباسية لم تقم لها قائمة تذكر بعد كارثة العصر البويهى الذى هبط بالخلافة إلى درك سحيق وفتح الباب لكل المذاهب الضالة والمعادية للإسلام لتنتشر دون قيد ، وكان دعاة غلاة الشيعة الإسماعيلية قد زرعوا قوائم المجتمع بما نشره في الناس من الأمل الكاذب فيما سموه المهدي المنتظر ، وكان عوام الناس في درك سحيق من الفقر والتعاسة والجهل فقد استبد بهم الملوك من ناحية وتخلى عنهم أهل العلم من ناحية ، فلم يبق قريباً منهم إلا الداعية الإسماعيلية الذى كان يمنيهم بالخلاص من الفقر والذل بقيام دولة المهدي من آل البيت التى تملأ الدنيا عدلاً ، وما زالت المؤامرة الكبرى تتسع حتى بلغت ذروتها بقيام دولة الفاطميين في بلاد إفريقية وهى تونس الحالية سنة (٢٩٦ هـ / ٩٠٩ م) ثم انتقلت إلى مصر سنة (٣٥٢ هـ / ٩٦٣ م) وأخذت تنازع الخلافة العباسية على السلطان في بلاد الشام ، ومن صحراء جزيرة العرب أقبل القرامطة وهم شركاء الفاطميين يطالبون بنصيبهم من الغنيمة وانضم إليهم بنو هلال ، وبنو سليم بن منصور وهاجموا العراق ودمشق ودخلوا مكة وسرقوا الحجر الأسود على ما قلناه ، وقد تصدى السلاجقة للفاطميين واستمرت الحروب قائمة بين الجانبين حتى زمن الغزالي واقتربنا من كارثة الغزو الصليبي سنة ١٠٩٧ م ، وهى عدوان خطير طويل على بلاد الإسلام ما زلنا نستتكره ونحمل على الذين قاموا به من ملوك النصرانية الغربية وأمرائها ونحن أحق باللوم والتنديد ، فإن البلاد لا تغزى من الخارج بل من الداخل كما قال المؤرخ الرومانى تاكيتوس ، بمعنى أن الأمة إذا كانت قوية البناء سليمة التكوين صحيحة الاعتقاد قائمة على العدل ، لم يجسر على العدوان عليها أحد ، والصليبيون عندما هاجمونا كنا في الحضيض من التفرقة والضعف فعلاً ، والضعف لم يكن

سياسيًا فحسب بل كان عقائديًا أخلاقيًا فكانت قلوبنا ونفوسنا واعتقاداتنا شتى ،
وهنا في حالات الضعف والتفرق يظهر الأعداء ، ولو لم يهاجمنا الصليبيون لهاجمنا
غيرهم ونحن أولاً وآخرًا السبب ، نحن البلاء وأسباب البلاء ، هكذا كنا أيام الغزالي
وهكذا نحن اليوم ونحن قوم لا نتعلم شيئاً : لا من التاريخ ولا من الحياة ولا من الدين ،
أشقياء بأنفسنا قبل أن نشقى بغيرنا ، ولا يهون قوم على الناس حتى يهونوا على
أنفسهم .

في هذا الجو المضطرب الحافل بالمخاوف والأخطار على أمة الإسلام نشأ الغزالي
ودخل ميدان الحياة وكان بطبعه شاباً واسع الذكاء بعيد الغور .

أقبل على التدريس في النظامية ، وبلغ مكانة كبرى وهو بعد دون الثلاثين وأقبلت
عليه الدنيا فخاف إقبالها عليه وأحس أنه مسئول عن هذه الأمة ومصيرها ، وأحس أنها
ليست بحاجة إلى زعيم سياسي قوى يسوق الناس بعصاه فإذا مات انفض كل شيء
وعاد إلى ما كان عليه ، بل هي بحاجة إلى معلم يعود بها إلى الأصول ويبدأ معها
الطريق ، هنا تتجلى لنا أستاذية الغزالي فهو لم يكن أستاذ مدرسة أو جامعة إنما أستاذ
أمة ، ولأنه أستاذ أمة فقد بدأ بنفسه يعلمها ويهذبها وقال لنفسه : لقد ضللنا الطريق
فلنعد إلى نقطة البداية ، والبداية هنا هي الله سبحانه .. من هنا نبدأ ونسير خطوة خطوة
لنرى أين ننتهي ، وهو عندما بدأ من جديد لم يعد إلى قراءة الكتب لأنه كان يحفظها ،
ولكنه عاد إليها ليعيشها ، فهو إذا عاد يتدبر القرآن اجتهد في أن يعيش القرآن وهو لا
يكتفى بقراءة الأحاديث إنما هو يعيش السنة لأن العلم لا ينبغي أن يكون دراسة
فحسب بل معايشة أو قل تجربة شخصية قلبية يعيشها الإنسان . لكي يعيش الغزالي
التجربة الجديدة هانت عليه الدنيا ؛ لأن الدنيا الرخيصة التي يتهافت الناس عليها لا
تساوي عناء عيشها ، وها هو ذا أستاذ عظيم في النظامية يتمتع بجاه عظيم وصيت
كالطبل ولكنه هو نفسه لا يشعر في داخل نفسه أنه شيء ، إنه ضائع محير فقير .
ولكى يجد نفسه لا بد أن يتخلى عن الحوائل التي تحول بينه وبين نفسه وهي الوظيفة
والمال والجاه وغرور الدنيا ، والإنسان إذا انتصر على متاع الدنيا وأحس أنه لا يحتاج
إليه لأنه أقوى منه أصبح في أصفى حالاته ، وعندما يصبح الإنسان في أصفى حالاته
يصبح أقوى من الجبال ، وترك الغزالي ما هو فيه وتخلى عن الوظيفة والجاه والمال فلم

يتمسك منه إلا بما يقيم أمر العيال - أى الأسرة - ولم يكن ذلك سهلاً فإن الجاه محبوب والمال مطلوب والصيت غلاب ، والقصة كلها يحكيها أبو حامد في أروع كتبه على الإطلاق وهو « المنقذ من الضلال » .. وهى قصة نفس حيرى هائمة بالحق تطلبه لنفسها قبل أن تطلبه للناس وقد كتبه الغزالي بمداد قلبه ؛ لأن الخصلة الكبرى التى تميز الغزالي عن غيره هى الصدق : الصدق مع نفسه ومع الله سبحانه أولاً . واستمع إليه يقول فى ذلك الكتاب العظيم :

« وهذه الحركة قدرها الله تعالى وهى من عجائب تقديراته التى لم يكن لها انقذاح فى القلب فى هذه العزلة كما لم يكن الخروج من بغداد والنزوع عن تلك الأحوال مما خطر إمكانه أصلاً بالبال ، والله تعالى مقلب القلوب والأحوال وقلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن وأنا أعلم أنى - وإن رجعت إلى نشر العلم - فما رجعت فإن الرجوع عود إلى ما كان ، وكنت فى ذلك الزمان أنشر العلم الذى يكسب به الجاه وأدعو إليه بقولى وعملى وكان ذلك قصدى ونيتى ، وأما الآن فأدعو إلى العلم الذى به يترك الجاه ويعرف به سقوط رتبة الجاه » .

« وهذا هو الآن نيتى وقصدى وأمنيته بعلم الله ذلك منى ، وأنا أبغى أن أصلح نفسى وغيرى ، ولست أدرى أصل إلى مرادى أم أخترم (أموت) دون غرضى ؟ ولكنى أومن إيمان يقين ومشاهدة أنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم وأنى لم أتحرك ولكنه حركنى ، وأنى لم أعمل ولكنه استعملنى ، فأسأله أن يصلحنى أولاً ثم يصلح بى ويهدينى ثم يهدى بى ، وأن يرينى الحق حقاً ويرزقنى اتباعه ويرينى الباطل باطلاً ويرزقنى اجتنابه » .

إذن فالغزالي يريد إصلاح زمانه ولكنه يرى أنه لا يستطيع إصلاح غيره إذا لم يكن هو صالحاً ، ولهذا فهو يريد أن يعتزل ليتأمل ويفكر لا بحثاً عن الحق فهو يعرف الحق وهو الله سبحانه ولكن الذى كان يبحث عنه هو الطريق إلى الحق ونقطة البداية هى ترك الجاه والمركز ، لا احتقاراً لهما بل لكى يستطيع أن يرى بوضوح ، وكان الناس فى أيامه قد ذهبوا مذاهب شتى بعيداً عن الحق ، والبعد عن الحق فى رأى الغزالي هو سبب الضلال والبلاء والضعف وتفرق أمور المسلمين ، وطالت عزلة الغزالي إحدى عشرة سنة كما قال (من ذى قعدة ٤٨٨ - ذى قعدة ٤٩٩ هـ / ١٠٩٥ - ١١٠٥ م) .

وفي عزلته عرض في نفسه ما قرأ من آراء المتكلمين والمعتزلة والباطنية والفلاسفة ورأى أنها كلها لا تؤدي إلى إيمان أو استقرار النفس بل إلى الحيرة والشك وضعف اليقين ، وقال في كلامه عن الفلاسفة « حتى إن ابن سينا في وصية له كتب فيها أنه عاهد الله تعالى على كذا وكذا ، وأن يعظم الأوضاع الشرعية ولا يقصر في العبادات الدينية ولا يشرب تلهياً بل تداوياً وتشافياً ، فكان منتهى حالته في صفاء الإيمان والتزام العبادات أن استثنى شرب الخمر لغرض التشافي فهذا إيمان من يدعى الإيمان منهم وقد انخدع بهم جماعة وزادهم ضعف المعارضين عليهم إذا اعترضوا بمجادعة علم الهندسة والمنطق وغير ذلك مما هو ضروري لهم على ما بيّنا علته قبل .

وبينما كان المعتزلة ومعظم أهل العلم عندنا يحتقرون العوام ويرون أنفسهم أرفع درجة منهم حتى أن واحداً منهم هو أبو بكر الباهلي الذي ذكرناه كان يستر وجهه عن طلابه لأن طلابه يرون بعيونهم السوقة فتصبح بهذا غير جديرة بأن ترى وجهه ، فاستمع إلى الغزالي يقول في المنقذ من الضلال : « ومن نظر في أقوال رسول الله عليه الصلاة والسلام وما ورد من الأخبار في اهتمامه بإرشاد الخلق وتلطفه في جر الناس بأنواع الرفق واللطف إلى تحسين الأخلاق وإصلاح ذات البين ، وبالجمل إلى ما لا يصلح إلا به دينهم وديناهم . حصل به على علم ضروري بأن شفقتة على أمته أعظم من شفقة الوالد على ولده» .

ويختتم الغزالي كتابه المنقذ باليأس من العلم الدنيوي الذي يزيد الإنسان غفلة عن الحق وغروراً بنفسه ، ويقول « أما العلم الحقيقي فيزيد صاحبه خشية وخوفاً ورجاء وذلك يحول بينه وبين المعاصي إلا الهفوات التي لا ينفك عنها البشر إلا في الفترات وذلك لا يدل على ضعف الإيمان ، فالمؤمن مُفْتَنٌ تَوَّابٌ وهو بعيد عن الإصرار والإكباب » .

ويخرج الإنسان من قراءة « المنقذ من الضلال » بأن الغزالي لم ينته إلى نهاية بل إلى بداية ، بداية طريق الإنسان نحو الصلاح ، ولا بد أن نقول هنا : إن الغزالي كان مكتئباً من الكتابة وكلما أحس أنه وصل إلى شيء سارع فكتب به رسالة ، وهذا يدل على تفاؤله وحسن رجائه في الله والناس ، فهو يسعى إلى ما فيه خيرهم أبداً وهو يشركهم في كل ما

يدور في ذهنه ، وقد أحصى الدكتور / عبد الرحمن بدوي في كتاب (مؤلفات الغزالي) عشرات من هذه الكتب التي يعتبر كل منها قطعة من الإيمان والحق والصدق ، وإذا كان المنقذ يعرض علينا كيف درس الغزالي كل صنف من أصناف العلوم والاتجاهات وانتهى إلى زيفها جميعاً ، فإنه أَلَّفَ في كل علم واتجاه فكري رسالة صغيرة تدل على علم حقيقي وعمق في النظرة وطلب صادق للحق . فكتب كتاب (تهافت الفلاسفة) ردًا على أهل الفلسفة (وأسرار الباطنية) دحض فيه حججهم ورد على التعليمية الذين كانوا يقولون : إن كل زمان يحتاج إلى معلم ، ورسول الله ﷺ معلم زمانه ، ويحتاج الأمر بعده إلى معلمين يرشدون الناس وهؤلاء المعلمون هم دعاة المهديّة من الشيعة ، وهم يقولون إنهم يعدلون الرسول ﷺ ، بل إن له كتابًا جميلًا في مناقشة النصارى عنوانه (الرد الجميل على أتباع عيسى بنص الإنجيل) وهو فيه رجل هادئ منطقي إنساني بعيد عن التعصب والغرور لا يقول شيئاً من جارح الكلام ؛ لأن الغزالي كان إنساناً رقيق القلب مرهف العاطفة على خلق عظيم .

* * *

وانتهى الفكر بالغزالي إلى التصوف أي الانقطاع للفكر والتأمل والعبادة وهو في تصوفه إيجابى أى أنه يبحث عن طريق الهداية ، وفي تصوفه وعزلته كتب أشهر كتبه وهو (إحياء علوم الدين) وهو كتاب جميل ولكنه حزين ، لأن الغزالي لا يحيى فيه علوم الدين لكى يعيش بها حياة محترمة ، بل لكى يموت ميتة شريفة ، فهو طريق إلى الموت لا إلى الحياة ، وكان الغزالي يقول فيه : « لقد ضاعت الدنيا ولم يبق لنا إلا الدين فلننتسبث به لأنه طريق النجاة » ، وقد يكون الغزالي أراد بإحياء علوم الدين إحياء الأمل في نهوض المسلمين ولكن هذا غير واضح على أى حال ، وكل ما أستطيع قوله بإخلاص أنك تقرأ « المنقذ » في بداية حياتك لتجد الطريق الأمثل للإيمان والحياة الصالحة ، وتقرأ « الإحياء » إذا أحسست بقرب النهاية لتصل إلى السلام بسلام .

والكتاب ضخم ولكنه رغم ضخامته ممتع ؛ لأنك تحس أنك فيه مع رجل مخلص صادق أمين ، وأقسام الكتاب الكبيرة أربعة : قسم العبادات ، وقسم العادات ، وهو يريك فيه طريق المعاملات الشريفة على أساس الورع والتقوى والدين الصحيح ، ثم قسم

المهلكات : وفيه يحذرك من مهالك النفوس ومعاطب الأرواح ، وقسم المنجيات : وهو طريقك إلى النهاية التي يرتجئها كل مؤمن .

وأجمل فصول الكتاب ذلك الذى يتحدث فيه الغزالي عن القلب وهو مركز الإحساس المؤمن الصادق ، إنه الضمير إنه صلتك بالله سبحانه ويقول « إن القلب هو العالم بالله وهو المتقرب إلى الله وهو العامل لله وهو الساعى إلى الله وهو الكاشف بما عند الله ولديه » ، لهذا القلب الصادق المؤمن الذى نسميه نحن الضمير الحى .

والتصوف عند أبى حامد تصوف إيجابى أى أنه انصراف عن دنيا الناس للبحث عن الطريق إلى الخلاص ، ولهذا فإن تصوف الغزالي لم يكن انقطاعاً عن الدنيا بل الخروج من متاعب حياة الناس إلى راحة القرب من الله ، ولهذا فهو لم ينقطع عن الدنيا أبداً حتى وهو بعيد عنها فقلبه مشغول دائماً بالناس ، وخلص الناس ، ولهذا فقد كان الغزالي لا يطول اعتزاله بل يعود إلى الدنيا يهدى الناس كتاباً جديداً .

والحق أن العالم الذى عاش فيه الغزالي كان عالماً حزيناً حقاً ، وعالم الإسلام الذى عرفه وجاهد فى سبيل خلاصه كان عالماً بشعاً لا يصدق من يراه أن هذه هى الأمة التى وعدها الله بأن تكون خير أمة أخرجت للناس إذا هى دعت إلى الخير وأمرت بالمعروف ونهت عن المنكر ، فلا هى دعت إلى الخير ولا أمرت بالمعروف ولا نهت عن المنكر ، فكانت أضعف أمة عرفها الناس ، ففى منتصف صيف ١٠٩٧ م نزل الصليبيون أرض الشام ليجدوا المسلمين فى أسوء حالة يمكن تصورها ، فالحروب دائرة بين بقايا السلاجقة والفاطميين ، وإنطاكية بيد حاكم أرمنى مسلم يسمى ياغيسيان ودمشق بيد أمير صغير وحلب بيد آخر والخليفة العباسى تحول إلى سيد إقطاعى له إقطاع صغير يعيش منه والفاطيون يملكون جنوب الشام ، وقبل نزول الصليبيين يحققون نصراً (عظيماً) فيستولون على بيت المقدس ، وعندما يسمعون بأن الصليبيين نزلوا بلاد الشام رحبوا بهم وظنوا أنهم يستعينون بهم على إخوانهم المسلمين ، ولكن الحقيقة تتكشف لهم عندما يرون أن الصليبيين سائرون نحو بيت المقدس فيسرعون بالانسحاب منها - وفى سنة ١٠٩٨ م يدخلون القدس ويقتلون فى يوم واحد ٧٠,٠٠٠ من المسلمين ، فماذا يفعل الغزالي المرهف الحس وهو يرى عالمه الإسلامى يتدهور إلى

هذا الحضيض ؟ هنا يشتد حزنه ولكنه لا يقنط قط من رحمة الله ، ودين الله لا بد أن ينتصر في النهاية ، هكذا قال القرآن وكل ما في القرآن صدق وحق .

وإلى طوس يعود الغزالي ليتدبر أمر المسلمين ، وفي ١٤ جمادى الثانية ٥٠٥ هـ / ١٩ ديسمبر ١١١٢ م يغادر هذه الدنيا إلى عالم البقاء ووصيته الأخيرة للناس : « لقد ضاعت الدنيا فلم يبق إلا الدين فتشبهوا به . واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ليعود لكم العز من جديد ، أيقظوا القلوب فإن القلب الصالحى هو طريق الخلاص » .

وبهذا القلب الحى أصبح أبو حامد الغزالي حجة الإسلام ومحى الدين وأصبح فى نفس الوقت أعظم مفكر إسلامى تعرفه - وتعترف به - الدنيا ، فالمؤلفات عنه وعن فكره وآرائه مئات فى كل لغات البشر وهى تفوق كل ما كتبه الغربيون عن غيره من مفكرينا ، إنه عند أهل الغرب يقف فى أعلى مستويات البشرية ، وهو أجمل صورة بشرية للإسلام تعرفها الدنيا !

obeikandi.com

ابن حزم القُرطبي صَرَخَةً فِي سُكُونِ اللَّيْلِ

ما زلنا بعيدين جداً عن فهم حقيقة الأندلس : كيف قام ؟ وكيف عاش ؟ وكيف مات ؟ .. الغالبية العظمى منا لا تزال تنظر إليه على أنه حلم ليل شتاء قارس البرد طويل ، هذا الحلم يسميه الكثيرون بالفردوس المفقود ، الفردوس الذي أنشأناه في عصر بطولتنا هناك على الأرض الأوروبية فيما وراء البحار ، وبعد أن أنشأه جيل الأبطال جاءت أجيال غير الأبطال تصرفت في الكنز الموروث تصرف السفهاء ، والهواية العربية المفضلة على طول التاريخ هي قتل بعضنا بعضاً هواية غريبة مارسناها من شباب تاريخنا إلى شيخوخة هذا التاريخ ، ولا زلنا نمارسها بإتقان عجيب إلى اليوم ، وانظر حولك وقل لي إن كنت أبالغ أن العالم كله يتعجب من مهارتنا في هذه الرياضة العجيبة التي لا ينافسنا فيها غيرنا ، فقانون الدنيا خارج نطاقنا : أنا وأخي على ابن عمي وأنا وابن عمي على الغريب ، أما نحن فقانوننا الفريد فهو : أنا والغريب على ابن عمي ، وأنا وابن عمي على أخي ، ثم تجيء بعد ذلك رائعة فلسفة الفناء العربية : أنا والدنيا كلها على نفسي ، والأوطان عندنا ضياع مورثة ننادى عليها ونتغنى بحبها ثم يمسك بعضنا بخناق بعض فلا تنتهي المعركة إلا وقد ضاعت الأرض وما عليها ، وهنا نبدأ في البكاء عليها إلى آخر الزمن ، والبكاء على الأوطان الضائعة هو الإضافة العبقريّة الوحيدة التي أضفناها إلى « ريرتورا » الموسيقى العالمية .

والأندلس هنا نموذج مثالي فتحناه في أربع سنوات وضيعناه في ثمانمائة ، وبكيناه إلى الآن أربعة قرون ، وفي نيتنا - بمشيئة الله - أن نظل نبكيه ملايين القرون المقبلة وعندما تقوم الساعة سنسبح إلى الجحيم الذي نستحقه في بحر الدموع .

أنشأناه في أربع سنوات (٧١١ - ٧١٥ م) ، ثم عدنا إلى رياضتنا المحببة : صيد بعضنا بعضاً ، القدمات منا في الأندلس أخذوا يقاتلون الجدد ، والعرب يقاتلون البربر ، والعرب الشاميون يقاتلون العرب اليمينيين ، وكنا أيامها - أولاً عن آخر - مائة ألف مسلم في الأندلس كله ، ومساحة الأندلس ٦٠٠,٠٠٠ كيلو متر ، ومع ذلك كان بعضنا يقول لبعض : اخرجوا عنا فإن بلدنا يضيق بنا ولا يحملنا وإياكم .

ومرت أربع وأربعون سنة ونحن نقاتل بعضنا بعضاً حتى إذا كنا على وشك القضاء تداركتنا رحمة الله بعبرى حقيقى من بناء الدول هو عبد الرحمن بن معاوية ابن هشام بن عبد الملك بن مروان الملقب بالداخل إلى الأندلس ، جمعنا بعصاه وأقام لنا ومنا دولة ولدت فى (الخامس عشر من رمضان ١٣٨ هـ / ٢٢ فبراير ٧٥٦ م) ، وكأنها فرصة العمر أتاحتها الله لنا بفضلها ، وفى رعاية تلك الإمارة الأموية عشنا فى رغد وقوة وازدهار حتى أكرمنا الله بأعظم أمراء هذه الدولة وتاسعهم وهو عبد الرحمن بن محمد ابن عبد الله المعروف بالثالث أو الناصر فى (صفر سنة ٣٠٠ هـ / سبتمبر ٩١٢ م) ، فمضى بنا صعداً فى القوة وجمع ما انتقص من شملنا ، وجعل الإمارة خلافة فى أواخر (٣١٦ هـ / أوائل ٩٢٩ م) ، فأصبحت فى عالم الإسلام بذلك ثلاث دول خلافة : العباسية والفاطمية والأموية الأندلسية ، ومضى عبد الرحمن يحكم وقد جمع شبه الجزيرة إلى لوائه حتى استتمت سنوات حكمه ٥٠ سنة هجرية وتوفى فى (٣ رمضان ٣٥٠ هـ / ١٧ أكتوبر ٩٦١ م) ، بعد أن نقش اسمه بحروف من نار ونور على أنه أعظم وأقوى وأحكم وأقدر من تولى أمورنا من الخلفاء وأطولهم حكماً ، فأما النار فلأن عبد الرحمن الناصر استخدم لتوجيه دولته من القوة والعنف ما لم يعرفه خليفة قبله وربما قام له فى ذلك عذر ؛ لأن داء التفرق فىنا عويص مزمن ، وحكامنا الأقوياء فى الماضى كانوا أشبه برجال مطافئ كلما أطفأوا النار فى ناحية اشتعلت فى ناحية أخرى ، وأما النور فلأن الأندلس فى أيامه أضاء بنور حضارى باهر وصلت أشعته إلى قلب ألمانيا ، فأقبل ملوك الأرض إلى بلاد الناصر يتأملون وراء هذا الملك الزاهر والحضارة الوارفة التى لم تعرف لها الدنيا فى ذلك الحين مثيلاً ، وفى قاعة السفراء ذلك البهو الزاهر من قصر الزهراء الذى بناه فى مدينة الزهراء على سطح جبل العروس المطل على قرطبة جلس الناصر يستقبل السفراء فى أبهة ملوكية قامت على العدل والجهد البالغ ، وكان الناصر عجيبية بين حكام الإسلام ما وعد إلا وفى ، وما قال إلا صدق ، وما عاهد إلا كان عند عهده ، إنما كانت شدته وعنفه على الخارج على سلطان دولة الجماعة الساعى فى تفريق عصا المسلمين .

وبعد الناصر جاء ابنه الحكم المستنصر أعلم ملوك الإسلام وأعدلهم جميعاً بعد عمر بن عبد العزيز (٣٥٠ - ٣٦٦ هـ / ٩٦١ - ٩٧٦ م) الذى جعل الأندلس دار علم وفضل ، وتراخت يده بعض الشئ فبدأت الفتنة تعود ، وتطلع حكام النواحي

للاستبداد بنواحيهم وتجلى ذلك بعد وفاة الحكم المستنصر في (٣ صفر ٢٦٦ هـ / ١٦ أكتوبر ٩٧٦ م) ، فقام طاغية سياسى يسمى محمد بن أبى عامر ونهض من صفوف الكتاب إلى صفوف العسكريين وقبض على زمام الملك من (٢٧٠ هـ : ٩١٧ م تقريباً) ، واستبد بالأمير استبداداً تاماً من دون الخليفة الرسمى الصبى هشام المؤيد ابن الحكم المستنصر ، وفى طريقه إلى السلطان المطلق ارتكب هذا الطارىء الطاغية كل جريمة وموبقة ، وإذا كان عبد الرحمن الناصر لم يغدر فى حياته بإنسان محسن مستقيم فإن محمد بن أبى عامر الذى تلقب بالمنصور لم يدع إنساناً محسناً مستقيماً طموحاً إلا أطاح به ، واستغنى عن كبار رجال الدولة الذين كانوا سند الدولة الأموية ابناً عن أب عن جد ، وأنشأ لنفسه بطانة سوء من النهازين الغادرين ليعينوه على ظلمه وكسر وحدة جيش الأمة فأنشأ لنفسه جيشاً خاصاً به من مرتزقة البربر الذين جلبهم من المغرب وجمع حوله نفراً من الوزراء بعضهم من أصول طيبة وبعضهم من أصول خسيصة ، ومازال هذا الرجل يحكم حتى وافاه الأجل المحتوم فى (رمضان ٢٩٢ هـ / أغسطس ١٠٠٣ م) والبلد يضح من ظلمه وغدره وخلفه ابنه عبد الملك المظفر فى رئاسة الحزب العامرى ورئاسة الدولة حتى (صفر ٣٩٩ هـ / أكتوبر ١٠٠٨ م) وبعد سنتين فى (١٦ جمادى الأولى ٣٩٩ هـ / ١٥ فبراير ١٠٠٩ م) انفجرت الثورة على العامريين وعادت الخلافة الأموية القرطبية عودة هزيلة ، وثارت الفتنة الأهلية بين جيش الدولة الأصيل القديم وجيش المنصور المرتزق ، واستشرت الفتنة وقامت ولم تقعد حتى نهاية الأندلس ، وغرق الأندلس فى بحار الفتنة واختفى فى ليل التاريخ الطويل .

مدخل لم يكن منه بد لكى نعرف أين وفى أى ظروف عاش وعمل أبو محمد على بن حزم .

فى أيام الطاغية محمد بن أبى عامر المنصور ظهر أمر بنى حزم ، وأصلهم من قرية صغيرة تسمى الزاوية من كورة (مقاطعة) لبلة Liebla على المحيط الأطلسى عند الحدود بين إسبانيا والبرتغال ، وهاجر أبوه بأسرته إلى قرطبة ودخل فى خدمة المنصور محمد بن أبى عامر وصار فى جملة وزرائه واكتسب من الوزارة مالاً كثيراً اشترى منه

قصرًا في شرقي قرطبة في حي يسمى منية المغيرة ، وقصرًا آخر في غربها عند باب الوراقين واشترى كذلك ضياعًا في كورة لبلبة واحدة منها في قرية صغيرة تسمى منتليشم ، وإلى هذه الضيعة سيلجأ ابن حزم بعد يأسه من السياسة ويتفرغ للتأليف .

وفي أيام وزارة أبيه أحمد بن سعيد بن حزم ولد على بن أحمد بن سعيد بن حزم مدار حديثنا هذا في فجر الأربعاء (٢٨٤ هـ / ٧ نوفمبر ٩٩٤) في قصر أبيه في منية المغيرة وترى كما يقول في بيت نعمة ومال كثير وخدم وحشم وأصل أسرته في الغالب من عجم أهل الأندلس ولكنه يزعم أن بيته أموى بالولاء ويرجع نسبه إلى رجل يسمى سفيان بن يزيد كان مولى ليزيد بن أبى سفيان ، وهذه النسبة الأموية كانت بالنسبة لابن حزم مرضًا نفسيًا فقد ظل طول عمره يفخر ببني أمية الأندلسيين ، ويتعصب لهم وهذا معقول فإن الأندلس الإسلامية لم ير العز إلا في أيام البيت الأموى وبنهايتها سنة (٤٢٢ هـ / ١٠٣١ م) ، بدأت نهاية الأندلس ولكن الذى لا نقبله من رجل في عقلية ابن حزم هو تعصبه البالغ لبني أمية عمومًا وهو تعصب يجعله في إحدى صفحات « جمهرة أنساب العرب » من تأليفه يأنف أنفًا شديدًا من أن يقال إن واحدًا من أبناء عبد شمس - خصوم بنى هاشم - كان فقيرًا ، وفي كتاب آخر من كتبه هو « المفاضلة بين الصحابة » نجده يحاول الحط من مكان على بن أبى طالب وإن تبرأ من ذلك (ص ٢٣٦ وما يليها) .

ومن حسن الحظ أن أبا محمد على بن سعيد بن حزم كان كثير الكتابة عن نفسه ، فقد خلف لنا كتابًا جميلًا - سنتحدث عنه - يسمى طوق الحمامة في الألفة والإلاف « أى في الحب والمحبين » ، جاءنا فيه بكثير من تفاصيل حياته الأولى في قصور أبيه ونشأته بين جوارى القصور قال : « ولقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيرى لأنى ربيت في حجورهن ونشأت بين أيديهن ولم أعرف غيرهن ، ولا جالست الشباب إلا وأنا في حد الشباب وحين تبلغ وجهى (ظهر شعره) وهن علمننى القرآن ورويننى كثيرًا من الأشعار ودربننى في الخط ولم يكن وكدى (همدى) وإعمال ذهنى منذ أول فهمى وأنا في سن الطفولة جدًا إلا تعرف أسبابهن والبحث عن أخبارهن وتحصيل ذلك وأنا لا أنسى شيئًا مما أراد منهن » (الطوق ص ٤٦) .

ومات أبوه سنة (٤٠٢ هـ / ١٠١١ م) والفتنة الأندلسية في بدايتها واضطر إلى

مغادرة قرطبة عندما دخلها البربر أعداء بني أمية وتتبعوا أنصار بني أمية فذهب إلى بلدة في شرق الأندلس هي المرية ليحتفى بمولى من موالى العامريين يسمى خيران ، ولكن خيران لم يطمئن إليه فأخرجه منها ، فلجأ إلى بلنسية حيث نادى الناس برجل من الأمويين هو عبد الرحمن بن محمد المهدي ويايعوه خليفة ولقبوه بالمرتضى ، فاتخذ ابن حزم وزيراً ، وهى وزارة كما ترى جد هزيلة لأن المرتضى لم يلبث أن قتل ، وعاد ابن حزم إلى قرطبة حزينا في صحبة صديق له ، وفي رمضان (٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م) بويع لرجل آخر من بني أمية يسمى عبد الرحمن المستظهر ، وكان شاباً نجيباً يرجى منه خير ولكنه تولى في غمار فتنة لا ترحم فعمل ابن حزم وزيراً له شهوراً قليلة ثم أصبح وزيراً لهشام المؤيد ، وزارة هزيلة أخرى ، وعندما نفى هشام المعتد آخر خلفاء بني أمية وألغيت الخلافة الأموية الأندلسية نهائياً في (ديسمبر ١٠٣١ م) طلق ابن حزم السياسة وانصرف إلى العلم ، وكان هذا من حسن حظه وحظنا .

وكان ابن حزم قد دخل ميدان الطلب قبل ذلك بسنوات ، وكانت سنة عند دخول ميدان العلم بعد الثالثة والعشرين ، وقد دخل ميدان العلم في ظروف هي أشبه بالمصادفة ولكنه عندما بدأ يقبل على العلم اكتشف نفسه وعرف أن العلم هو ميدان حياته وسبب وجوده ؛ فأقبل يلتهم الكتب التهاماً فقرأ كل ما تيسر له من تفاسير القرآن الكريم ، ودرس كل كتب الحديث من صحاح ومسانيد وكتب سنن وأربعينات ومستدركات وزوائد ، ثم درس اللغة والشعر والأدب واستبحر اطلاعه على تاريخ الإسلام ، وقد رزقه الله عقلاً راجحاً وذهناً صافياً وذاكرة لا أظن أنني عرفت لها شبيهاً فقد كان يقرأ الشيء مرة واحدة فينطبع في ذهنه ولا ينساه ، وكان ذا عقل ناقد : يقرأ الشيء ويزنه بميزان منطقته أو يرفضه أو يستصفي منه ما يرى أنه ينفعه ، وقد درس على عدد كبير من الشيوخ أهمهم أبو عمر بن الجسور ، وأبو الخيار مسعود بن مفلت ، وهذا الثاني كان من أجل الفقهاء وأوسعهم علماً ، وفي أثناء الدراسة تنقل ابن حزم من المذهب المالكي إلى الشافعي واستقر في النهاية عند رأى أهل الظاهر وشيخهم داود ابن علي الظاهري وهذه الجماعة كانت أبعد أصحاب المذاهب عن التفكير ، فهم يأخذون كل شيء على ظاهره فليدهم مثلاً حديث يقول : إن الكلب إذا ولغ في إناء أحدكم فقد أصابه نجس ولا بد من تطهيره ، فإذا قيل لهم : فإذا ولغ في الإناء خزير فماذا يكون

الحكم ؟ قالوا : لم يرد فيه نص فلا تجب فيه طهارة ، وإذا قرأ أحدهم قول الله سبحانه في أول سورة التكوير : ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ * وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ .. ﴾ إلى آخر الآيات وسئل في تفسير ذلك قال : هي كما ترى ومعانى الألفاظ عندك في معاجم اللغة ونحن لا نذهب إلى ما وراء ذلك ، وقد بيّن هو في كتبه الأسباب التي جعلته يطمئن إلى قول أهل الظاهر فقال : إن الفقهاء فرقوا أنهان الناس وخرجوا بهم عن القرآن والسنة عندما توسعوا في استعمال القياس ، فأصبحنا نجد في المسألة الواحدة عشرة آراء فما فوق فبأيها يأخذ المؤمن ؟ والتفسير الحقيقي لوقوف ابن حزم عند مذهب السنة هو أنه رفض كل الفكر الفقهي قبله واكتفى بالقرآن والسنة ، وهذا ظاهر من سأمه الدائم من المذاهب جميعاً .

ولم يقف اطلاع ابن حزم عند هذا الحد بل نظر في كتب اليهود والنصارى واليونان وأحاط بكل ما فيها إحاطة نادرة ، وجعل في أثناء ذلك يناقش العلماء ويناضرهم ولكن طريقته في المناقشة كانت بعيدة جداً عما أمر الله به في كتابه العزيز في أمر الدعوة والجدل ، فقد أمرنا الله بأن ندعو إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة وأمرنا إذا تجادلنا أن نجادل بالتي هي أحسن ، ولكن ابن حزم لفرط ذكائه وسعة علمه وضيق صدره بما كان يسمع ويقرأ من سخف ، كان قد أصبح ذا صبر قليل على الناس فكان إذا جادل أو ناظر لم يكن له هم إلا تحطيم خصمه ، وفي ذلك يقول معاصره مؤرخ الأندلس الكبير أبو مروان حيان بن خلف بن حيان : « ثم عدل إلى الظاهر فنقحه وجادل عنه ولم يكن يلطف صدعه بما عنده بتعريض ، ولا يرقد بتدريج بل يصك به معارضه صك الجنديل ، وينشقه انشقاق الخردل ، فينفر عنه القلوب ويقع به المغلوب ، حتى استهدف إلى فقهاء عصره فمالوا عليه وأجمعوا على تضليله وشنعوا عليه وحذروا سلاطينهم من فتنته ، ونهوا عوامهم عن الدنو منه فطفق الملوك يقصونه عن بلادهم إلى أن انتهوا به إلى منقطع أثره من بادية بلدة لبله ، وهو في ذلك غير مرتدع ولا راجع : يبث علمه لمن ينتابه من بادية بلده من أصاغر الطلبة الذين لا يخشون فيه الملامة ، يسمعهم ويفقههم ويدارسهم ، وأكمل مصنفاً لم يجاوز عتبة باديته لزهدهم الفقهاء فيها حتى لأحرق بعضها بأشبيلية ومزق علناً . »

وابن حيان يببالغ هنا ولا شك ، وكان هو الآخر طويل اللسان عنيف النقد لا يكاد

يرحم من لسانه المرير أحدًا ويبدو أن العصر كله كان عصر مرارة وآلام وضيق نفس وخوف وصراع ، ولا عجب فنحن في أيام فتنة وابن حزم لم يكن هادئ النفس زاهدًا في الدنيا يائسًا من الناس ولم يكن ينظر إلى الورا بل إلى الأمام كغيره من كبار فقهاء عصره ، بل خلق بطبعه إنسانًا حساسًا شديد الاهتمام بمصير الجماعة الإسلامية ، وفي كتاباته إشارات كثيرة جدًا إلى سوء الحال ووقوع رؤساء الأندلس في الفتن والحروب حتى أضعوا الأندلس ، وإذا كنا نأخذ عليه عنفه وحدة لسانه فلا بد أن نحمد له حماسته واهتمامه ونزوله الميدان يجادل عما كان يراه حقًا ، ولو أنه وجد أمراء الطوائف في عصره من يستمع له ويعى مقالته فربما كان له أثر مباشر في إنقاذ الأندلس ، ولكن ملوك الطوائف جميعًا كانوا من ناحية المستوى الإنساني في درجة من الهبوط لا تصدق ، وفي تلك الظروف التي ضاعت فيها الوحدة واشتد ضغط الخصوم من النصارى على البلاد واستولوا على بعض العواصم الكبرى مثل طليطلة والاشبونة ومجريط وقورية ، وانحدر حدود الأندلس الإسلامى إلى مجرى الوادى ، نجد هؤلاء السخفاء ملوك الطوائف يتهاكون على الدنيا ويسرفون في اللهو إسراف الخلى الذى لا يخشى غائلة والمأمون بن ذى النون صاحب طليطلة قبل سقوطها في يد ألفونسو السادس ١٠٨٥ م ينفق مئات الألوف على قصر يبنيه في طليطلة ويتألق فيه تالقي كبار الملوك ، والمعتضد بن عباد صاحب إشبيلية ينشئ في قصره حديقة يسميها حديقة الرءوس يجعل فيها من جماجم من يقتلهم من خصومه المسلمين أصصًا يزرع فيها الزهور وابنه المعتمد الشاعر المشهور يتخذ لجاريته اعتماد الرميكية — وأصلها بائعة لبن — حديقة أرضها من المسك والعنبر المعجونين بالعطور لتسير فيها حافية كما كانت تفعل أيام الفقر وبيع اللبن والسير حافية في الطرقات ، وأبو عبد الله الحائك وزير آخر بنى جهور يتخذ لنفسه دارًا خاصة بالغلما ن يسميها بيت اللذة لكى ينعم فيها بشذونه الحقير ، وباديس بن حبوس منشىء دولة بنى زيرى في غرناطة سكير لا يكاد يفيق من الخمر ليل نهار ، وهذه مذكرات حفيده المعروفة باسم « التبيان » المشهورة عندنا باسم مذكرات الأمير عبد الله الزيرى فتحدث عن ذلك الانحطاط كله بأجلى بيان ، وأمامك كتاب « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » لابن بسام الشنترينى تجد فيه العجب من أمر أولئك الناس .

في هذا المناخ الفاسد من يسمع لابن حزم أو يفكر فيما يقول؟! لقد كان الرجل آية في الخلق والعلم والإيمان، وكان قلبه يحترق على مصير وطنه الذي أحبه فأبغضوه وخافوه وصاروا يطردونه من بلادهم واحداً بعد الآخر، وآخر من فتح له أبوابه رجل من الطارئين على الإمارة يسمى أحمد بن رشيق، استقل بجزيرة ميورقة وهي كبرى الجزائر الإسبانية التي تعرف باسم البليار، فذهب إلى هناك سنة (٤٣٠ هـ / ١٠٢٩ م) ومضى يجادل الفقهاء على مذهبه في العنف حتى قضى على فقيه البلد وكان رجلاً بسيطاً محدود العلم يسمى أبا الوليد بن اليارية الميورقي وكان مالكيًا، وقد أراد هذا الرجل مجادلة ابن حزم مدافعاً عن المالكية فهو على ابن حزم بكل ما أوتي من عنف وسفه رأيه وأظهر ضعف علمه بالحديث فغلط في بعض ما روى، فسجنه ابن رشيق حتى يتوب عن خطئه ثم أخرجته وقد هلك ومضى الرجل للحج فمات في الطريق من شدة ما ناله من القهر.

ويبدو أن ابن رشيق أسف على ما فعل فأبغض ابن حزم وسجنه أياماً ثم أخرجته من بلده فاتجه بعد ذلك إلى أشبيلية فلم يجد هناك من يسمع له فقرر الانسحاب من الدنيا ومضى إلى ضيعته في منتليشم قرب لبلبة قرب الحدود الجنوبية للبرتغال، وهناك انقطع للتأليف ولم يعد يزوره إلا نفر من أصاغر الطلبة كما يقول ابن حيان، وفي عزلته تلك قضى نحو عشرين سنة يكتب في حماسة غريبة حتى بلغت مؤلفاته المعروفة لنا قرابة ٥٣ كتاباً ورسالة، بعضها في مجلدات كبيرة تصل إلى ثمانية مجلدات وبعضها في أربعة، ومنها ما لا يزيد على بضع ورقات وهي تغطي كل مجالات الفكر الإنساني فيها فهو فقيه مؤرخ نسابة أديب وشاعر وناقد أدبي، وصاحب تأليف مبتكر تفرد به بين أهل الأدب والفكر في العصور الوسطى وهو كتاب «طوق الحمامة» وهو من أمتع ما تقرؤه عن الحب لولا صعوبة أسلوبه تجعل الوصول إلى ما يريد قوله عسيراً بعض الشيء، وبهذا الكتاب الصغير وصل ابن حزم إلى درجة جديرة في الآداب العالمية ولا أظن أن كاتباً عربياً ذاع أمره هذا الذبوع في العالم كله إلا ألف ليلة فهو مترجم إلى لغات العالم جميعاً وطبعاته ذاتعة تجدها في كل مكان في طبقات شعبية (بيير - باك) وأجمل ترجماته الإسبانية، وقد قام بها الأديب المستشرق الأسباني اميليو غرسية غومس، وقدم للترجمة فيلسوف أسباني معاصر كبير هو اورتيجا إي جاست (١٨٨٢ -

١٩٥٥) فقال في مقدمته : إن هذا الكتاب وحده يدل على أن الأدب العربي جدير بالاحترام كله ، وإن قراءته إياه غيرت من نظرتك إلى الفكر الإسلامي وهي شهادة لها قدرها من واحد من أعظم مفكرى عصرنا .

وتوفى ابن حزم في منفاه الذي ارتضاه لنفسه في (٢٨ شعبان ٤٥٦ هـ / ١٧ يوليو ١٠٦٤ م) توفى صابراً محتسباً صافي النفس ويبدو أن علته التي مات منها كانت السرطان ؛ لأنه عانى من أوصاب المرض شيئاً كثيراً وقد تحمل آلامه في صبر وقال : « لا جعلنا الله من الشاكين إلا إليه وأعادنا إلى أفضل ما عودنا ، إن الذي أبقي لأكثر من الذي أخذ ، والذي ترك أعظم من الذي تحيف ومواهبه المحيطة بنا ونعمه التي غمرتنا لا تحد ولا يؤدي شكرها والكل منحه وعطاياه ولا حكم لنا في أنفسنا ونحن منه وإليه منقلبون وكل عارية فراجعة إلى معيرها وله الحمد أولاً وأخيراً عوداً وبدءاً وأنا أقول : إذا ما صح لى دينى وعرضى .. فليست لما تولى ذا اهتمام جعلنا الله وإياك من الصابرين الشاكين » (طوق الحمامة ص ١٥٣) .

وهذه العبارة وحدها من ابن حزم تدل على أن ما نقرأه من نقده في كتبنا مبالغ فيه ، ومن المعروف أن فقهاء السُّنة من أعنف الناس على من خصمهم وخالف رأيهم أو نقد مذهبهم ، وفي دراستى هذه تبينت من قسوتهم البالغة على خصومهم ما جعلنى أشك كثيراً في تقديراتهم ، وأنا ألتمس لهم العذر في هذا العنف لأن خصوم السُّنة وأهلها كثيرون جداً وكانوا في الغاية من العنف والبعد عن الضمير ، ومعظمهم بعيدون عن الإيمان الصحيح ولم يكن هناك مفر لأهل السُّنة من اتخاذ هذا العنف كله ولولا تلك الصلابة لأصاب السُّنة والجماعة بلاء شديد ، ومذاهب السُّنة والجماعة هي الصخرة العاتية التي حفظت الإسلام خلال العصور السود التي مرت به وبأهله ، ولهذا فإننى أرجو القارئ أن يعيد النظر فيما يقول بعض العلماء من أمثال الحافظ الذهبي الذي قال فيه : « وقد امتحن هذا الرجل وشد عليه وشرذ من وطنه وجرت عليه أمور لطول لسانه واستخفافه بالكبار ووقوعه في أئمة الاجتهاد بأقبح عبارة وأحط محاورة وأبشع تمرد » حقاً إن ابن حزم عنيف جداً في مناقشته وعنفه هذا يتجلى في مجادلاته مع أهل المذاهب في كتابه « الفصل في الملل والأهواء والنحل » ، ولكننا إذا أمعنا القراءة وجدنا للرجل عذره فإن لهم وقفات طوالاً ومحاورات لا معنى لها عند نقط من الفقه لا تستحق

هذا العناد كله مثل جدلهم في المسح على الخف وكلامهم عن الرأى فيمن يتبول واقفاً ، ولكن ابن حزم لم يهاجم قط واحداً من كبار الأئمة ولا هو وقع بلسانه في مالك أو أبى حنيفة أو الشافعى ، فهو لا يذكرهم إلا بإكبار أما مناقشته فللرأى في ذاته ، وهنا لا نعيب عليه حدته في دحض حجج مخالفيه فهذه هى طريقته وهذا مزاجه ويكفى ابن حزم أنه لم يفر من الميدان ولا هو لجأ إلى العزلة إلا مضطراً ، وقد عرض نفسه ببسالته للكثير من الأذى وكان من الممكن جداً أن يلقى حتفه ؛ فَلأقل من ذلك بكثير قتل غيره فهو فقيه مناضل ومفكر باسل وهذه هى الفضيلة الكبرى التى تجعل ابن حزم علماً فريداً من أعلام الفكر في تاريخنا .

* * *

ويعتبر ابن حزم من المفكرين المسلمين القلائل الذين يحتلون مكاناً صدرًا في تاريخ الفكر العالمى ، ومكانه هذا لا يدانيه إلا قلائل آخرون أهمهم : أبو بكر الرازى الطبيب ، وأبو على بن سينا الفيلسوف ، والإدريسى الجغرافى ، وابن خلدون المؤرخ ، وابن رشد الفيلسوف ؛ وأبو القاسم الزهراوى الجراح .

والعمل الأكبر لابن حزم كتاب « الفصل فى الأهواء والملل والنحل » وهو أول تاريخ للأديان فى تاريخ الفكر العالمى ، وابن حزم فيه مؤرخ ومفكر من مستوى عالمى فعلاً ، فهو يبدأ بدراسة فكرة التدين ذاتها وكيف أن الإنسان بطبعه محتاج إلى عقيدة يطمئن إليها قلبه ويستعين بإيمانه فيها إلى مصيره فى هذه الحياة ، وهو لا يركز كلامه فيما يتردد عند عامة فقهاءنا من أن الإسلام هو دين الفطرة بل يقول : إن الوثنية هى ديانة الفطرة الأولى وإن الوصول إلى التوحيد مرحلة فكرية عالية لم يصل إليها الإنسان إلا بهدى من الله ، وقد حاول كارل بارك Karl Barth أعظم اللاهوتيين فى عصرنا أن ينقض رأى ابن حزم ليقول : إن الوصول إلى التوحيد كان نتيجة للفكر الإنسانى فلم يستطع ، وتكلم ليفى شتراوس عن فكرة التوحيد وحاول أن يجد لها طريقاً عقلياً يمر بإخاناتون فلم يوفق ، والمستشرق الأسبانى ميجل آسين بلاتىوس Mijuel Asin Palacias يقف هنا إلى جانب ابن حزم ، وفى ندوة كبرى عقدت فى السوربون سنة ١٩٤٦ قدم آسين رأى ابن حزم وحججه المنطقية ولم يستطع الصمود له كبار المفكرين الماديين الذين ينكرون النبوات والوحى جميعاً ، وآسين دون شك هو الرجل الوحيد الذى أعرف أنه قرأ ابن حزم كاملاً حتى كتبته الفقهية الخالصة مثل « الإحكام فى أصول الأحكام »

و « المُحلّى في الفقه المُعلّى » وهى كتب فقهية لا يصبر على مطالعتها إلا أهل التخصص في الفقه وكل هذه قرأها أسين بلاتيوس ، وكتابه عن ابن حزم ضخم يقع في خمسة مجلدات وقد دخل به أسين عضواً في مجمع اللغة الإسبانى ، وقال يومها دوق إلبا رئيس المجمع : إننا نستقبل اليوم عضوين في مجمع الخالدين ابن حزم القرطبى وأسین بلاتيوس . ومن ذلك الحين أصبح ابن حزم جزءاً من تاريخ الفكر الأسبانى وهذا شىء مستغرب لأن ابن حزم في دراسته كلها يقف على أرض صلبة جداً من الإيمان بالإسلام وكتاب الله وسُنّة نبيه ، والمفكرون من أهل الغرب لا يقبلون هذا الموقف أصلاً ولكنهم قبلوه من ابن حزم لأن الرجل علامة متبحر فعلاً ، فهو يتحدث عن اليهودية حديث الدارس المتمكن ، وكلامه عن النصرانية كلام لاهوتى متخصص في مذاهب النصرانية وهو يتدرج في الكلام حتى ينتهى بك في كتاب « الفصل » إلى الإسلام ، وهنا فقط يقول : إن الإسلام دين الفطرة ويورد الأدلة على أن الإسلام منحة الله الكبرى لأهل العقول .

وكنت أود أن أحدثك عن كتاب « طوق الحمامة » وهو رائعة ابن حزم في الأدب الجميل المبتكر ولكنك لا بد قد قرأته أو عرفت عنه ما يعينك ، وابن حزم فيه رجل صريح لا يخفى شيئاً فهو يقص عليك تجاربه في الحب وعلاقاته مع النساء حديث المسلم العفيف ، فهو يؤكد لك أنه لم يرتكب معصية قط ولا قارف ما يغضب الله ، إنما هو رجل صادق قوى يتحدث دون خوف من الناس وحسبه خوفه من الله سبحانه .

ولكن صوت ابن حزم تردد في ظلام ليل الأندلس ، فقد كانت الأندلس كلها قد اشتعلت ناراً واستسلم الناس فيها إلى اليأس وانقطاع الأمل وتركوا الأمور تجرى في أعنتها إلا هذا القلب اليقظ والعالم المناضل الذى يبدو لنا بحياته ونشاطه وحماسه كرجل وجد الناس نياماً فأطلق شكاته تشق سكون الليل فتقلب الناس في مضاجعهم وتلملوا من هذا الذى حاول إيقاظهم من السبات فلعنوه وشتموه ثم انقلبوا على الجانب الآخر واسترسلوا في نوم القرون .

obeikandi.com

أبو العلاء المَعزى : نُورُ الظَّلامِ أبو الطَّيِّبِ الْمُتَنَبِّى : ظَلامُ النُّورِ

عندما نصل إلى القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى تتابنا حيرة كبرى . فهذا هو عصر التدهور السياسى المحزن . إنه عصر البويهيين والقرامطة والفاطميين ، الذين زلزلوا قواعد الحكم فى عالم الإسلام ، الحاكم البويهى الديلمى المهيمن بسلطانه على خليفة المسلمين فى بغداد يصبح عملياً رئيس عصاة لصوص ، وأموال الناس تجمع بالقهر وتنفق فيما يضر أمة الإسلام ، والقرامطة يغيرون على العراق والشام ومصر والحجاز ويسرقون الحجر الأسود ، والخليفة الفاطمى فى مصر والشام يضع أبشع نظام لاستخراج الأموال من الناس ، ومصر قبل الفاطميين كانت أكبر بلد صناعى فى عالم الإسلام . كنا نصدر للعالم كله - شرقاً وغرباً - ورق الكتابة من البردى ، ومصانع النسيج فى تنيس وشطا ودبيق كانت تصنع نصف النسيج المستعمل فى العالم العربى كله ، فافنى الفاطميون ذلك كله ، والأعراب أحرقوا أشجار مصر والمقريزى يقرر ذلك عندما تقطع الأشجار تحترق الزروع .

هذه هى أسباب ما يسمى بالشدة أو المجاعة المستنصرية ، ومصر التى كانت تطعم العالم جاعت ، والخليفة الفاطمى جلس فى قصره على حصير وفى رجله قبقاب . جلس ينتظر رغيفين ترسلهما إليه إحدى المحسنات ، وبغداد مدينة النور أصبحت مدينة الظلام ، والخليفة العباسى أصبح موظفاً بويهياً ، وفقهه لا يخاف الله يسمى أبا الحسن على الماوردى يكتب فى السياسة كتاباً يسميه « الأحكام السلطانية » ، يحلل فيه ولاية اللص والسارق والفاسق والمجنون ، وأهل العلم فى عالم الإسلام لا يعرفون إن كانوا سيكون أو يضحكون ، وفى شرق إيران تقوم دولة بويهية أخرى على رأسها ركن الدولة ، وتدخل فيها الرى وهمذان وأصفهان ، بعد قليل تقع الحرب بين ركن الدولة وديلمى آخر يسمى وشمكير بن زيار الديلمى ، كل البويهيين ينتسبون إلى الدولة إلا وشمكير هذا ، أخيراً ينتصر ركن الدولة وأولاده يرثونه ، كل بلاد العراق وفارس تصبح قسمة بين فخر الدولة وعماد الدولة ويمين الدولة وزفت الدولة .

في بلاد الموصل وحلب تقوم دولة عربية ذات صيت بعيد عندنا هي الدولة الحمدانية (٣١٧ - ٣٩٤ هـ / ٩٢٩ - ١٠٠٣ م) نحن نخضع أنفسنا في أمر بني حمدان هؤلاء ، وخاصة الفرع الحلبي الذي يتولاه سيف الدولة أبو المحاسن علي (٢٢٣ - ٣٥٦ هـ / ٩٤٤ - ٩٧٧ م) ، هذا هو صاحب المتنبى الذي يزعمون لنا أنه كان يحارب الروم وينتصر عليهم ، ويقولون : إنه أنزل بالروم هزائم قاصمة واستولى على زبطرة وعرقه وملقية ، وهزم قسطنطين بن فردس الدمستق عند مرعش وأسره ، والحكاية كلها أقل من ذلك بكثير ، لأن قسطنطين هذا كان شاباً صغيراً في الجيش البيزنطي كان يخدم في جيش الامبراطور « قسطنطين ليكابينوس » (٩٢٤ - ٩٤٥ م) في فترة من أضعف فترات تاريخ الدولة البيزنطية ، والقائد فردس هو Pordas Damasticus ولم يكن من كبار رجال الدولة ، وستنهض الدولة البيزنطية بعد ذلك في أيام قسطنطين السابع الملقب بلباس الأرجوان (٩٤٤ - ٩٥٥ م) و Porghys Genitus وتتمكن جيوشها من غزو بلاد المسلمين وعبور نهر الفرات والاستيلاء على أنطاكية في الفترة الثانية من تاريخ الأسرة المقدونية ، وقد تمكن خلالها بعض أباطرة الدولة من أمثال نقفور فوكاس (٩٦٣ - ٩٦٩ م) ويوحنا تسيبيكيس الذي يسميه العرب يوحنا الشمشيق (٩٦٩ - ٩٧٦ م) من غزو شمال الشام والتمهيد للحروب الصليبية وغزو الفرنجة لبلاد الشام .

كان هذا القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي عصرًا عسيرًا على أهل الإسلام ، فقد وهنت فيه قواهم واشتدت الخصومات بين حكامهم حتى خيف على مصير الإسلام ، وزاد الخطر عليهم عندما انتقلت الدولة الفاطمية من إفريقية إلى مصر سنة (٣٦٢ هـ / ٩٧٣ م) واشتد الصراع بينها وبين الدولة العباسية ولا تسل عن سوء حال الناس في ذلك العصر ، وسنرى أن تشاؤم أبي العلاء المعري كان يرجع إلى حد كبير إلى سوء أحوال المسلمين .

ومن عجب أن هذا العصر بالذات حفل بعدد من فحول الشعراء الذين يعدهم النقاد قممًا للشعر العربي على مر العصور وإليك بعض الأسماء - وأنت تعرفها كلها - مع تواريخ حياتها :

- أبو الطيب المتنبي (٣٠٣ - ٣٥٤ هـ / ٩١٥ - ٩٦٥ م) .
 أبو فراس الحمداني (٢٢٠ - ٣٥٧ هـ / ٩٢٢ - ٩٦٨ م) .
 الشريف الرضى (٣٥٩ - ٤٠٦ هـ / ٩٧٠ - ١٠١٦ م) .
 أبو العلاء المعرى (٣٦٢ - ٤٤٩ هـ / ٩٧٣ - ١٠٥٨ م) .
 أبو بكر أحمد بن محمد الصنوبرى المتوفى (٣٢٤ هـ / ٩٤٥ م) .

وهؤلاء وغيرهم كثيرون يعدون من أعظم شعراء العربية على مر العصور ، ولكن واحداً من هؤلاء الكثيرين لم يشعر بالواقع الأليم الذى كانت تعيشه أمة الإسلام والعروبة فى ذلك العصر ، كما شعر به أبو العلاء المعرى ، بينما كان كل من ذكرنا من أهل المواهب الشعرية الباهرة قد انفصلوا تماماً عن واقع أمتهم العربية ولم يهتمهم فى شىء تعاسة الناس وانعدام الأمان على النفس والمال والأهل والولد وضياع الإنسان العربى وشيوع شكوك الناس وانتشار الآراء الضالة المضلة ، وانصرفوا عن ذلك كله كأنهم كانوا يعيشون فى كوكب آخر ، فأنفقوا ملكاتهم وأشعارهم فى غزليات كاذبة ومدائح شائنة استجداء للمال ، بل إن بعضهم مثل مهيار الديلمى - وهو عبقرية شعرية لا شك فيها - كان يقول القصيدة العصماء فى استجداء فرو خروف أو ثوب أو أكلة ثريد .

هنا نعرف قيمة أبى العلاء المعرى ، وهو بصدقه وإخلاصه وإحساسه المرهف بآلام البشر وإنسانيته التى تروع النفس ، يعتبر دون شك من أعظم شعراء الإنسانية على الإطلاق ، فهذا الرجل الذى حرم نور البصر من سن الثالثة ، وشوه الجدرى وجهه حتى أصبح يخجل من أن يطلع بوجهه على الناس ، رزقه الله بصيرة منيرة يرى على ضوئها كل حقائق الحياة ، وفى حالته وحالة غيره من الشعراء يصدق قول الله سبحانه فى آية تروع النفس من سورة الحج ، وسأتى هنا بها وبآيات قبلها ليكتمل فهم القارىء لها وإحساسه بها ، فإنه لا يفسر القرآن إلا القرآن (٢٢ / ٤٥ - ٤٦)

﴿ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبْرُ مُعْطَلَةٌ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا * أَوْ أَذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ فاما

القرية التي أهلكها الله وهي ظالمة فهي إشارة إلى بلاد الإسلام التي ظلمت نفسها فسلط الله عليها الهلاك ، وبلاد الإسلام كانت بالفعل خاوية على عروشها ، والمسلمون هم الذين خربوها بأيديهم ، والبئر المعطلة إشارة إلى منابع الخير التي تعطلت بفعل الحكام الظالمين الذين يسكنون القصر المشيد ، وهو معطل أيضاً بسبب الدسائس والمؤامرات التي كانت تملأ الحجرات والأبهاء والدهاليز .

وأما الذين لم يسيروا في الأرض ليروا الحقائق ويسمعوها ويتحدثوا بها فهم أولئك الشعراء والكتاب الذين عاشوا وماتوا فلم يروا إلا قصور الخلفاء والأغنياء التي وقفوا على أبوابها يتسولون وعيونهم مفتوحة ولكنها لا ترى من الحق شيئاً لأن قلوبهم في الصدور عمياء ، إلا قلب أبي العلاء فهذا الرجل كان يرى ببصيرته المنيرة كل شيء ويحس كل شيء حتى آلام الحشرة الصغيرة كان يحس بها ، واسمع إليه يقول :

تسريح كفك برغووثاً ظفرت به أبر من درهم تعطيه محتاجاً
كلاهما يتقى ، والحياة له عزيزة ، ويمنى النفس مهتاجاً

وهذا في إحساسى .. أعظم شعر قاله إنسان . تصور أن أبا العلاء يدعوك إلى تسريح البرغووث الذى تظفر به يدك رحمة به ، وهو يرى ذلك من أعمال البر وهو أفضل عنده من الإحسان إلى محتاج بدرهم ، لأن البرغووث مسكين لا حيلة له في إيذاء الناس بخرطومه الذى يدسه في جسدك ليشرّب دمك ، فهذه طبيعته وهكذا خلقه الله وهو إذ يفعل ذلك لا يشعر أنه يؤذيك وإنما هو يتقى الموت ويمنى النفس بالحياة مهتاجاً أى سعيداً بها مقبلاً عليها ، مثله في ذلك مثل المحتاج الذى ينتظر منك الدرهم ليأكل ويتقى الموت ، وأبو العلاء يمثل هذا الإحساس الإنسانى المرهف يرتقى عندنا إلى مستوى من الإحساس رفيع ، وهذا الإحساس هو الذى جعله وهو الكفيف البصر يرى حقائق الحياة حوله ويحس تعاسة الناس وظلم الحكام ويقول :

يارب أخرجنى إلى دار الرضا عجباً فهذا عالم منكوس
ظلوا كدائرة تحول بعضها من بعضها فجميعها معكوس
وأرى ملوكاً لا تحوط رعية فعلام تؤخذ جزية ومكوس

واستمع معى إلى الدكتورة عائشة عبد الرحمن - بنت الشاطىء - تقول فى كتابها

البدیع عن أبی العلاء المعری (ص ۲۲۳) : فهو وحده - ولا أحد سواه - من یجرؤ علی أن یصدع جبروت الحکام وطغیان الولاة بمثل قؤله :

مل المقام . فکم أعاشر أمة أمرت بغير صلاحها أمرؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعدوا مصالحها وهم أجراؤها

وتأمل معی قوله إن هؤلاء الأمراء هم أجراء الأمة التي یظلمونها ، فهذه مقالة رجل یفهم من شئون الحکم والحکام قدرًا لا یقل عما فهمه جان جاك روسو ، وفولتير ، وسان سيمون وكل مفکری الثورة الفرنسیة وعصر الأنوار .

واقراً معی قول أبی العلاء :

یسود الناس زید ثم عمرو کذاک تقلب الدولات دولة
ورب شهادة وردت بزور أقام لنصها القاضی عدوله
ومن شر البریة رب ملک یرید رعیة أن یسجدوا له
أجل ، فالقاضی یقبل شهادة الزور ویستعین فی ذلك بشهود یعرف أنهم مزورون ، ولكنه یعتبرهم عدولاً أى أهل عدالة ، والحاکم یرید من الناس أن یسجدوا له .

لأمر ما أحس أن أبی العلاء یشیر هنا إلى ملک مثل عضد الدولة البویهی وإلى قاضٍ مثل أبی الحسن الماوردی .

وهل نفذت بصیرة رجل إلى مثل ما وصلت إليه بصیرة أبی العلاء ، عندما قال ساخرًا من حکام العصر وفقهائه :

لم أرض رأی ولاة لقبوا ملکاً بمقتدر وأخر قاهرًا
هذی صفات الله جل جلاله فالحق بمن هجر الغواة مظاهرًا
کم قائم بعظاته متفقه فی الدین یوجد - حین یکشف - عاهرًا
وعلمت قلب المرء یغرق فی هوی دنیاه . خاب مکاتماً ومجاهرًا

أتعرف سر قوة أبی العلاء وشجاعته ؟

لقد استغنى عن الدنيا والناس ، وزهد الراحة والنعيم ، أصيب بالعمى والدمامة وهو بعد في الثالثة من عمره ، فانكب على العلم يدرس ويحفظ وقد رزقه الله عقلاً كله نور وذاكرة واعية لا نظن أن إنساناً وهب مثلاً ، كان يقرأ الكتاب الكبير مرة واحدة فيحفظ كل ما فيه : هكذا يقول المؤرخون ، وهذه مبالغة لا شك والحكايات هنا كثيرة جداً وليس من الضروري - لكى نعرف قوة ذاكرة أبى العلاء - أن نصدق أنه سمع مرة رجلين أعجميين يتشاجران بلغة تركية أو فارسية لا يفهما ، فلما دعى للشهادة قص كل ما سمعه من كلام أعجمى كأن ذاكرته شريط تسجيل .

وبهذه الذاكرة وعى أبو العلاء كل علوم عصره وكل ما وصلت إليه البشرية من علم قبله ، ولكن الذى وهبه أبو العلاء من الإحساس الإنسانى كان أعظم لقد كان إحساسه الإنسانى مرهفاً يحس بكل شىء ، لقد أحس بدمامة وجهه بعد الجدى فقرر ألا يتزوج ، لم يشأ أن يضايق أى امرأة أو جارية لا يعجبها وجهه وبعد فترة قصيرة من الشباب حاول فيها أبو العلاء أن يقهر سجن الظلام الذى فرضه القدر عليه ، اقتنع أن الحياة لا تساوى العناء فذهب إلى حلب - قرب قريته معرة النعمان - ليستصفى ما فى خزائن كتبها من علم ، وعاد إلى قريته ثم نهض مرة أخرى إلى بغداد حيث رأى علماءها فيه عقلاً عجبياً وعلماً أعجب ، لقد اعترف الناس هناك بفضلته وعلمه وتأكدوا أنه أعلم أهل زمانه وأشعرهم ، بهذه الشهادة وصل أبو العلاء إلى ذروة ما يطمح إليه رجل العلم ، فكَّرَ راجعاً إلى قريته حيث حكم على نفسه بالسجن فى بيته بقية العمر ، وقد طال عمره حتى نيف على الثمانين لهذا سموه رهين المحبسين ، كان الناس يزورون بيته من أقطار العالم الإسلامى ليروا عجيبة عصره علماً وشعراً ، كما كان أهل أوربا يزورون فايما ليروا جيته عجيبة أهل الشعر فى عصره ، كان يقرئ الدروس على من يلم به من طلاب العلم - La Poesie Andalovse Enarabe Elassique au xo Siécle La Ecat- ologia Musulmana en La Comedia Divina ويملى على كاتب له ما يشاء ، كان ذهنه خصباً جداً ومؤلفاته تعد بالعشرات منها هذا الكتاب العجيب الذى يسمى برسالة الغفران ، وهى عمل أدبى ممتع فريد فى بابه صاغه أبو العلاء فى صورة رد على رسالة بعث بها إليه رجل يسمى على بن منصور الحلبي المعروف بابن القارح ، وابن القارح وجه إلى أبى العلاء بضعة أسئلة فى الأدب والفلسفة والدين والزندقة والتصوف وشئون

أخرى ، فصاغ أبو العلاء الرد في صورة أدبية رائعة لم يسبق إليها ، فقد تصور أن ابن القارح قام برحلة في دار البقاء ليستجلى بنفسه حقائق ماسأل عنه فركب جملاً كريماً من جمال الجنة خلق من ياقوت ودر ، وسار في الجنة على هواه أو على هوى الجمل يلقي أهل الجنة ، ورأى يوم الموقف وشهد ما فيه من هول وشناعة ، وقد أقام في الموقف ستة أشهر ينتظر الإذن في دخول الجنة حتى أعياه الحر والتعب ، ثم تمكن من العودة إلى الجنة ولقى فيها ناساً وشعراء ، ثم قصد إلى النار فركب دابة من دواب الجنة ومضى فمر في طريقه بجنة العفاريت (وهم جن مسلمون) ثم وصل إلى الجحيم فرأى إبليس مضطرباً في السلاسل والأغلال ، ويمر في رحلته تلك بعدد كبير من الشعراء ورجال الأدب ، فرأى في الجنة جماعة ممن كان يحسب أنهم في النار ، ورأى في النار ناساً كان يرى أنهم لا بد أن يكونوا في الجنة ، فيسأل الأولين عن سبب الغفران لهم ويسأل الآخرين عن سبب حرمانهم من الغفران ، فيقال له : إن هذا دخل الجنة ببيت من الشعر وذلك دخل النار ببيت من الشعر ، ولهذا سميت الرسالة برسالة الغفران .

والرسالة ذات طابع قصصى جميل ، وأبو العلاء يكشف فيها عن عالمه الداخلى الغنى ، وهو عالم مرح فياض بالدعابة وخفة الظل والذكاء والفهم العميق لشئون الدنيا والناس وأسرار الوجود ، والكتاب مبتكر كله في طريقتة وأسلوبه وفكرته ، ولكنه عسير على الفهم ولهذا فإنى أنصحك ألا تقرأه إلا في صحبة ناشرتة ومحققته الدكتوراة العلامة عائشة عبد الرحمن ، التى أنفقت من عمرها المديد - بإذن الله - سنوات طووالاً أهدتنا بعدها النص الكامل المحقق لذلك العمل الفريد مع دراسات وشروح هى الغاية فى العمق والشمول .

ويحسب الكثيرون أن دانتي الليجيرى اقتبس فكرة الكوميديا الإلهية من رسالة أبى العلاء ، ولكن اثنين من أكابر الباحثين فى الغرب هما هنرى بيريس فى كتابه - La Pa- sie Andagause en Arabe Ellassijue aux, Siecle La Ssealelag, a Nusulmone en الكوميديا الإلهية عند المسلمين والى الكوميديا الإلهية من رسالة الغفران ولا سمع بأبى العلاء ، ولكن الذى حدث هو أن بعض صور الجنة والنار فى رسالة الغفران دخلت فى تفاصيل قصة المعراج التى بدأت قصيرة فى حديث معروف رواه ابن عباس عن عائشة أم

المؤمنين ، ثم تطورت مع الزمن وانصبت فيها صور كثيرة جداً من الأدب الشعبي العربي ، منها بعض الصور مقتبسة من رسالة أبي العلاء وبعضها مقتبس من رسالة « التوابع والزوابع » لابن شهيد الأندلسي وواحدة من تلك الصور الشعبية لقصة المعراج هي التي وصلت إلى دانتي فسطا عليها ونال بها المجد ، كما أثبت ذلك أسين بلاتيوس وأنريكو شيرولي ، وقد فصلنا أمر ذلك في كتابنا عن تاريخ الأدب الأندلسي .

* * *

ولا أدري لماذا أشعر كلما قرأت شيئاً من شعر أبي العلاء ففزت إلى ذهني القصيدة الذائعة الصيت لتوماس فيرنز اليوت T . S . Eliat وهي الأرض اليباب أو الويست لاند والفرق بين حياة أبي العلاء وحياة ذلك الشاعر الإنجليزي الأمريكي المولد جسيم ، فقد كان أبو العلاء شقياً بنفسه وبالذنيا والناس في حين أن اليوت عاش ناعماً رخي الحال ، وإذا كان شعر الموت والضيق بالحياة طبيعياً من أبي العلاء ، ويكفينا فخراً بأبي العلاء أنه عبقرية عربية من أهل القرن العاشر فاقت بمراحل أعظم عبقرية شعرية غربية من أهل القرن العشرين فإن الأرض اليباب غير طبيعية من ت . س . اليوت ، ولكن العبقريات تتلاقى وقد لقي اليوت من الكرامة بقصيدته تلك أضعاف ما لقي أبو العلاء بشعره العظيم ، مع أنه دون شك أشعر وأعمق ، واليوت في قصيدته متكلف مسرف في الإغراب ، وفي قصيدته أبيات إغريقية وأخرى لاتينية أو المانية أو إيطالية وهو يعرض في كلامه علمه الواسع بالأدب واللغات ، وقد شقيت أنا بها زماناً حتى أسعفني الحظ بترجمتها مع شروح فياضة قام بها الأستاذ الأديب العراقي مولداً المصري روحاً وخفة ظل الدكتور عبد الواحد لؤلؤة .

رحم الله أبا العلاء ، لقد عاش في ظلام ومن الظلام عم الدنيا بأنوار قلبه وبصيرته ولم يكتف بحبس نفسه في بيته بل حرم نفسه الزواج وحرم على نفسه أكل اللحم والبيض وشرب اللبن وأكل العسل ، لأن الحيوانات والأسماك في رأيه خلقت لتعيش وتسعد لا لكي تذبح وتخرج من الماء فتختنق وتؤكل ، والدجاجة تبيض لنفسها لا للناس ، واللبن تصنعه الحيوانات لأولادها ، والعسل يخرج النحل لنفسه ، فبأى حق نسطو على ذلك كله ؟ فاسمع لهذا الإنسان الصافي الرفيع يقول :

فلا تاكلن ما أخرج الماء ظالمًا
ولا تفجعن الطير وهي غوافل
ودع ضرب النحل الذي بكرت له
فما أحرزته كي يكون لغيرها
سحبت يدي من كل هذا وليتني
أبوه العلاء في البيت الأخير لأنه لم ينتبه إلى ذلك كله قبل أن يشيب شعره ،

وأبو العلاء عربي صميم من فرع من قبيلة تنوخ ، نزل جنوبي حلب في شمالي الشام
وسكن قرية معرة النعمان ، واسمه أحمد بن عبد الله بن سليمان ، ولد ونشأ في بيت
كريم موسر وعاش خمساً وثمانين سنة كلها نور وخير وبركة للناس ، وكلها شقاء
وتعب وحرمان له ، وقد عبر عن رأيه في الحياة ببيت من الشعر أمر بأن يكتب على قبره :

هـذا جناهاه أبى علىٰ ومما جنيت علىٰ أحد

* * *

ومن أبى العلاء أنتقل بك إلى أبى الطيب أحمد بن الحسين الجعفي المعروف
بالممتنبي (٣٠٣ - ٣٥٤ هـ / ٩١٥ - ٩٦٥ م) ، وهو أشهر شعراء العربية على الإطلاق ،
وكنت أحب أن أختصه بحديث وحده ولكنني - صدقني - لم أجد عند المتنبي ما أملأ به
حديثاً كاملاً ، وهذا ليس تاريخاً للأدب العربي ، وإنما هو تاريخ للفكر . ونحن هنا
نبحث عن الأفكار الأصيلة النابعة من الإسلام أولاً ، ثم من العروبة ثانياً ، والآراء التي
تعطى الفكر العربي قيمته الحقيقية وهذا هو ديوان أبى الطيب بين يدي أقرؤه ربما
للمرة العاشرة وهو حافل بالشعر العظيم البليغ الرنان ، فإن الرجل قد وهب ملكة فريدة
جداً في صناعة الشعر وكان مثله في ذلك مثل أبى العلاء غاية في الاطلاع والعلم والذكاء ،
وكان إلى جانب ذلك رجلاً فخماً عظيم الهيئة جميل الصورة وفارساً نجدًا يبهر العيون ،
ولكن شعره العظيم كله يدور حول موضوع واحد هو أبو الطيب المتنبي ، فقد عاش
الرجل في الدنيا وكأنه ينظر في مرآة ليس فيها إلا رسمه ، والدنيا كلها عنده حاشية على

حياته ، ومهما تقرأ من شعره فأنت لا تجد فيه إلا المتنبى ، وهو يفخر بنفسه من مطلع الديوان إلى آخره وليس في قلبه مكان لغيره من البشر وأبو العلاء كان يقول :
فـلا هـطـلت عـلى وـلا بـأرضـى سـحـائب لـيس تـنـتـظـم البـلاد
أما أبو الطيب فيقول :

ملث الغيث أعطشها ربوعا وإلا فاسقها السم النقيعا
رجل يقول : إذا لم تمطر السماء على البشر أجمعين فأنا لا أريد المطر ، ورجل يقول اللهم أحرق الأرض وأعطش أهلها أو اسقهم السم ، رجل أخرج النور من الظلام ، ورجل أخرج الظلام من النور .

وقد وهب الله أبا الطيب المتنبى ملكة شاعرية لا أظن أن أحداً من العرب قد وهب مثلها ، فهو يأتي في شعره بما يشبه المستحيلات ، وقد سبق أن أوردت من شعره في سياق كلامى عن أبى بكر الباقلانى كيف استطاع أن يصنع من اسم عضد الدولة البويهى وألقابه كلها شعراً صحيحاً حيث قال :

أيا شجاع بفارس عضد الدولة فناخسرو شهنشاهها
أساميا لم تزده معرفة وإنما لذة ذكـرناهاها

والبيت الأول هنا لا يتصور أحد كيف صاغه هذا الرجل ، والبيت الثانى يريك أن المتنبى أعجبه من نفسه أنه استطاع صياغة هذا البيت فقال : إنما لذة ذكرناها ، وكأنه يريد أن يقول هنا : إنما صغت هذا البيت لذة أو تليذاً ، وهذا بدوره يكشف عن ناحية أساسية فى فهم المتنبى وهى أن شعره لا يصدر عن القلب إلا فى النادر ، فهذا الرجل الذى يعتبره الكثيرون رمز العروبة أو لسان قوميتها ، قال هذا الشعر فى مدح عدو من كبار أعداء العروبة والإسلام وهو عضد الدولة بن بويه ، فقد كان فارسياً لحماً ودماً ، وكان مسرفاً فى دعوة الشيعة الفارسية ، والإسلام محارم كسرى شاهنشاه فجاء

هذا الشقى وأراد وضع شاهنشاه على رقاب أهل الإسلام ، ومع ذلك فقد كان يخدم الخليفة العباسى رمز السنة والجماعة وكانت دولة البويهيين كلها دولة « كفرة فسقة روافض » وليس هذا كلامى وإنما هو كلام فقهاء السنة المعاصرين لعضد الدولة ، ولا أدرى كيف رضى شاعر العروبة أن يهين نفسه بمدح هذا الرجل وأمثاله ، بل إنه مدح بشعره رجلاً تركياً أو فارسياً لا يكاد يفهم العربية واسمه تليز بن تشكروز ، وقد كنا نستنكر منه مدحه لكافور الإخشيدى طلباً للمال ، ولكن ما ذنب أهل مصر حتى يهوى عليهم بلسانه ويقول فيهم ما لم يقله أحد فيهم ؟

تركننا أرض مصر لكل قدم له باع يقصر عن نراع
نفوس لا تليق بها المعالى وأخلاق تضيق عن المساعى
أقمت بها ومن محن الليلالى مقام الأسد فى كهف الضباع
أقول - وقد ناوا - بعداً وسحقاً لشر الخلق فى شر البقاع

فإذا قلنا - على مذهب الكثيرين - إنه لم يذم بهذا الشعر أهل مصر بل حكاهما إذ ذاك من الكافورية والإخشيدية ، فماذا نقول فى قوله إن مصر شر البقاع ، وقد كانت فى ذلك العصر أوفر بلاد الإسلام أمناً وخيراً ؟ ولكنه المتنبى الفياض القلب بالكرامية للناس أجمعين ، وأنا أعرف أننى أقجع بمثل هذا الكلام ناساً كثيرين ممن ما زالوا يقولون : إن المتنبى شاعر القومية العربية وقد غضب على شيخنا محمود محمد شاكر لأقل من ذاك بكثير ، ولكنى أجد أن مؤرخ الأدب العربى فى عصرنا وهو شوقى ضيف يخرج الجزء الخامس من تاريخه العظيم للأدب العربى فى قرابة ٨٠٠ صفحة ، فلا يمنح المتنبى منها إلا تسع صفحات ، وهو يذكره ضمن شعراء المديح ولو استطاع شوقى ضيف أن يقول أكثر من ذلك لقال ولكنه لم يجد ، والحقيقة التى تخرج بها من ديوان المتنبى أن شعره كله مدح فى نفسه ، وأياً كان موضوع قصيدته فلا بد أن يدور فى نهاية الأمر على شخصه ، وهو يزعم لنفسه أن الله لم يخلق شاعراً سواه .

obeikandi.com

فَلَا سِفَّةُ الْعَرَبِ :

وَضَعُوا الْفِكْرَ الْعَرَبِيَّ فِي صَمِيمِ

الْفِكْرِ الْإِنْسَانِيِّ !

هنا في عالم الفلاسفة لا بد لنا من الحذر البالغ ، لا بد أن تعرف أين تضع رجلك قبل أن تخطو لأنك هنا في معبد جليل له طقوسه ولغته ومصطلحه وكهنته أيضاً ، وبعض كهنة معبد الفلسفة يطلبون إليك أن تخلع نعليك وتتوقر وتتأدب وتتهذب وأولى قواعد هذا التأدب هي أن تترك خارج المعبد لغتك التي تعودت أن تستعملها وتستبدل بها لغة الفلاسفة ، وليس من الضروري أن تفهمها المهم أن تستعملها ولن تكون أول من يفعل هذا فقد سبقك إليه الدكتور فاوست عندما أغواه مفيستو قيليس اللعين ورد عليه شبابه ووضع في كفه يد هيلين لتمضى به في عالم المتعة واللذات والضياع في النهاية ، فقد قال له : لا بد أن تتكلم اللاتينية لا تقل الأرض ، بل قل تيرا ساكرا ولا تقل السماء بل قل كويليو لازولى ، لأننا في عالم الفلاسفة هذا إذا جهلنا شيئاً وضعنا له مصطلحاً لاتينياً عجبياً يخفى جهلنا ، وهذا هو يا عزيزي هو الهوكوس بوكوس وهو مفتاح السعادة ورأس الحكمة .

ومعبد الفلسفة ولد إغريقيًا وسيظل إلى الأبد إغريقيًا في روحه ومصطلحه وموضوعاته ، والأربعة الكبار في تاريخ الفلسفة الإغريقية الذين عرفهم العرب وترجموا لهم وتأثروا بهم كانوا إغريقاً وثنيين ولم يعرفوا إلا الإغريقية والوثنية ، وكان جهد فلاسفة العرب منصباً على إدخالهم الإسلام وتعليمهم العربية فلم يوفقوا في ذلك وظلت الفلسفة في جملتها شجرة غريبة في تربة الفكر العربي ، ولهذا فلم يكن لها فيه أثر يذكر والذي حدث هو العكس : فلاسفة العرب هاجروا بفكرهم إلى عالم الغرب وأصبحوا مفكرين عالميين ، أولئك هم : سقراط ، وأفلاطون ، وأرسطو ، ثم أفلوطين وهو بلوتينوس الإسكندري وهو مصرى إسكندراني عاش بعد الميلاد فيما بين سنتي (٢٠٥ م) وإليه تنسب الأفلاطونية الجديدة أو التيوبلاتونيزم وقد عاش وثنياً ومات وثنياً ولكن أثره في الفكر المسيحي الوسيط عظيم وقد عرفه الناس عن طريق تلميذه

فورفير يوس الصورى وقد تأثر به اللاهوتيون المسيحيون تأثراً عظيماً ، وكذلك كان له الأثر البعيد عند فلاسفة الإسلام ونحن مدينون فى معرفة ذلك للدكتور عبد الرحمن بدوى وكتابه الجليل « أفلاطون عند العرب » هؤلاء الأربعة الكبار هم شيوخ فلاسفة المسلمين ، وأنت لا تفهم الفيلسوف المسلم إلا إذا عرفت أستاذه اليونانى ، فابن سينا مثلاً أخذ أفكاره الفلسفية من كتب أفلاطون ، ولكى تفهم ابن سينا لا بد أن تعرف أفلاطون وكتبه ولغته ، وابن رشد كان مفتوناً بأرسطو ولا سبيل لك إلى فهم ابن رشد إلا إذا عرفت أرسطو وآراءه ولغته ومصطلحه ، ونتيجة هذا أن فلاسفة العرب اجتهدوا فى إنشاء لغة عربية فلسفية خاصة بهم وهى لغة عسيرة لم يبتكروها هم بل ابتكرها لهم المترجمون السريان أو نصارى الحيرة الذين تولوا نقل عيون كتب الفلسفة اليونانية إلى العربية مثل : يوحنا بن ماسويه ، وحنين بن إسحاق ، وقسطا بن لوقا ، وإسحاق بن حنين ، وهؤلاء كانت لغتهم العربية ركيكة جداً بل هى أحياناً ليست عربية أصلاً فهى لغة خاصة تستطيع أن تسميها جريكو - آراب أو جريكو - سيريako آراب ، وقد تأثرت كتابات فلاسفة العرب بهذه اللغة فجاءت عربيتهم عسيرة على الفهم وهذا كان فى جملة الأسباب التى زهدت جمهور المسلمين فى الفلسفة .

والفلسفة كلها كانت ضرورية وناقعة قبل الأديان السماوية ؛ لأنها كانت السبيل العقلى الوحيد لمعرفة أسرار الكون والوجود ، أما بعد الأديان وبالنسبة للمسلمين خاصة فلم تعد لها وظيفة فإن الإسلام فى ذاته نظام عقلى كامل وسبيل واضح لفهم أسرار الكون والحياة والموت ، ومن هنا فقد أصبحت الفلسفة كلها بالنسبة للمسلمين العارفين بأمور دينهم ترفاً عقلياً لا لزوم له ، ومن سوء حظ الفلسفة أنها دخلت عالم الفكر الإسلامى فى عصر تكاثرت فيه الزندقات والآراء الضالة وانحرافات غلاة الشيعة ودسائس الجوس ومن إليهم فاندرجت فى نظر أهل السنة والجماعة ضمن الأخطار الكبيرة على الإسلام وأهله ونفروا منها نفوراً شديداً حتى قال بعضهم : إن الفلسفة مشتقة من السفه وهذا بدوره جعل طريق الفيلسوف شاقاً وعسيراً وخطرًا فى عالم الإسلام ..

ولكن المسلمين فى عصر النهوض الفكرى العظيم لم يستطيعوا تجاهل الفلسفة فإن الإسلام أدخل فى نطاقه بلاداً كثيرة كانت أسماء سقراط وأفلاطون وأرسطو تدوى

فيها كالتبيل ، والدنيا كلها كانت تقول : إن أرسطو هو المعلم الأول ، والفكر الإسلامي في عصر السيادة كان متعطشاً إلى المعرفة ، فاقترح عالم الفكر اليونانى وعرف كبار الفلاسفة ، وبعد أن أنشأ المأمون دار الحكمة تدفقت المعرفة الفلسفية في ميدان الفكر الإسلامى تدفقاً وأقبل عليها الناس يدرسونها ويستكشفون ميادينها فوجدوا بالفعل أن مفكرين من أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطو جديرون بكل احترام ولهم نظريات وآراء وسبل إلى المعرفة تؤيد الفكر الإسلامى وتزيده غنى وثراء ، فقد كان أولئك الفلاسفة الكبار رجالاً أفاضل آتاهم الله عقولاً نيرة وأخلاقاً فاضلة ومذاهب في الحياة جميلة وخاصة في نواحي التأمل وطلب المعرفة عن طريق الفكر والمنطق والخلوة والزهد في مطالب الجسد ، لأن الإنسان إذا طوع شهوات جسده لمطالب عقله وروحه ازدادت بصيرته نفاذاً ، ومن هنا فقد اندفع نفر من طلاب المعرفة المسلمين نحو الفلسفة الإغريقية اندفاعاً شديداً فقد رأوا في تساميتها على المادة عوناً لهم على صفاء النفس وسلامة الاعتقاد ، والفارابى عشق أفلاطون لأنه كان بطبعه ميالاً إلى الزهد في الدنيا والخلوة بنفسه والتأمل ، ومن هنا فإن الباب الواسع الذى دخلت منه الفلسفة اليونانية ميدان الفكر الإسلامى هو باب الزهد في الدنيا وطلب السمو النفسى عن طريق التأمل .

ثم إن الفلسفة اليونانية لم تدخل ميدان الفكر الإسلامى وحدها ، بل دخل معها من الفكر اليونانى الرياضيات والطب والهندسة وكل ما كان يطلق عليه اسم علوم الأوائل .

وإذا كان القليلون من الناس يحتاجون إلى الرياضيات فإن البشر جميعاً في حاجة إلى الطب والدواء والعلاج ، ومن هنا فقد كان معظم فلاسفة المسلمين رياضيين وأطباء وبفضل الطب عاشوا ونجوا من الهلاك ، فالفارابى وابن سينا وابن طفيل وابن باجة وابن رشد كانوا أطباء ، وبسبب الطب رعاهم الملوك ولم يسمعوا إلى كلام الوشاة فيهم إلا فيما ندر .

ومن أسعد المصادفات التى أعانت الفلسفة على تثبيت أقدامها في عالم الإسلام قيام دولتين من عظيمات دول الإسلام في المشرق هما الدولة السامانية والدولة الغزنوية ، وقد قامت في ظل الدولة العباسية على مذهب أهل السنة والجماعة في إيران وما يليها شرقاً من بلاد أفغانستان وشمالاً من بلاد ما وراء النهر ، فأما الدولة السامانية

فتدخل في عداد الدول الفارسية (٢٦١ - ٣٨٩ هـ / ٨٧٤ - ٩٩٩ م) وقد مدت نفوذها على إيران وما وراء النهر ، وهي فارسية الاسم ولكنها عربية الروح سُنية المذهب ، وكان للكثيرين من سلاطينها ميول أدبية فكرية واشتهر الكثيرون منهم بسلامة الاعتقاد والإخلاص للإسلام على خلاف البويهيين ، وفي ظلهم عاش الفردوسى وكتب الشاهنامه بالفارسية ، وابن سينا الذى نال عندهم المنزلة الرفيعة ، وفي رعايتهم كتب مؤلفاته العظيمة ، ومثله في ذلك أبو بكر الرازى الطبيب وهذان بالإضافة إلى أبى القاسم الزهراوى الأندلسى هم أعظم أطباء الدنيا خلال العصور الوسطى كلها ، وفي أيام هذه الدولة أيضًا عاش وأزهر وألف أبو نصر الفارابى .

وأما الدولة الثانية فهي دولة الغزنويين وهم ترك خلفوا السامانيين في شرقى إيران وما وراء النهر ثم دفعهم الصراع مع السامانيين إلى دخول الهند فهم أصحاب الفتوح العظيمة هناك وهم الذين وضعوا الأساس المتين للهند الإسلامية وهم منسوبون إلى غزنة من بلاد أفغانستان وقد دامت دولتهم في أفغانستان والهند طويلاً (٣٥١ - ٥٨٢ هـ / ٩٦٢ - ١١٣٦ م) وهم أتراك من أهل السُّنة والجماعة أيضًا ، وفي ظلال هؤلاء عاش وعمل علماء وفلاسفة كثيرون ذكرنا من بينهم أبا الريحان البيرونى .

ولن ندخل هنا في تفاصيل فلسفات الكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد فهذا مطلب عسير علىّ ولا أنا أستطيعه وله أساتذته ورجاله ، ولكنى أقول بصفتى طالباً من طلاب المعرفة وخادماً لها : إن الذى خرجت به بعد القراءات الطويلة هو أن أهمية الفلسفة في تاريخ الفكر العربى والإسلامى ترجع في المكانة الأولى إلى أشخاص الفلاسفة فربما لم يكن للفارابى وابن سينا مثلاً أثر يذكر في صلب الفكر الإسلامى ولكنهما يعتبران رغم ذلك قمتين من قمم المجد في تاريخ الفكر الإسلامى ، فقد كان الرجلان كما سنرى على خلق عظيم وإيمان بالإسلام ثابت ولهما صورة إنسانية مشرقة يزهى بها تاريخ الفكر الإسلامى وإذا كانا لم يوفقا إلى زرع شجرة الفلسفة في التربة الإسلامية فقد نجحا إلى حد كبير في إضفاء ثوب إسلامى على أفكار أفلاطون وأرسطو وتم لهما ذلك نتيجة للجهد العظيم الذى بذلاه في التوفيق بين مذاهب الفلاسفة وعقيدة الإسلام ، وعلى الرغم من سوء ظن عامة أهل السُّنة في الفلاسفة عامة فإن الفكر الفلسفى الإغريقى دخل الفكر الإسلامى وكان له الأثر الطيب فيه ، وإن كان هذا الأثر

محدودًا ، وأهل السُّنة وإن نفروا من أسماء سقراط وأفلاطون وأرسطو فإنهم أخذوا عنهم الكثير من المنطق ومنهج الفكر وقوة الحجة وصحة القياس وإذا أنت قرأت شيئاً من كتابات الفارابي وابن سينا عن أفلاطون وأرسطو خيل إليك أن هذين كانا مسلمين بالخلق والشخصية وأسلوب الفكر واحترام الرأي ونزاهة النفس ومثل هذا يقال عن ابن طفيل وابن باجة وابن رشد في الأندلس .

وليس أدل على عظيم تأثير الفكر الفلسفي على الفكر العربي من أن المدرسة الفلسفية أخرجت في عصرنا هذا من أعلام الفكر أضعاف ما أخرجت المدارس الأدبية أو التاريخية ، ولطفى السيد ومصطفى عبد الرازق ومنصور فهمى وإبراهيم مذكور ونجيب محفوظ وزكى نجيب محمود والشيخ عبد الحليم محمود وفؤاد زكريا وجورج شحاتة قنواتى وعبد الرحمن بدوى ومحمد عبد الهادى أبو ريذة وأنيس منصور وتوفيق الطويل وحسن الساعاتى وعلى عبد الواحد وافي ، كل هؤلاء وغيرهم كثيرون من مؤسسى الفكر العربى الحديث تكونوا في مدرسة الفلسفة فلا بد أن دراسة الفلسفة فيها شيء لا يوجد في غيرها من الدراسات .

والحق أن المسلم الحق لا يحتاج إلى الفلسفة ليفهم شئون دينه ولكنه يحتاج إليها في ضبط منطقته وصقل ذهنه وتوسيع أفقه وتصويب تفكيره وهذا هو الذى غاب عن أهل السُّنة والجماعة عندما نفروا من الفلسفة وحاربوها ، فقد حسبوها في مجموعها محاولة للتشكيك في حقيقة الدين والوحى والرسالات أو حيلة للقضاء على الدين نفسه بمحاولة الوصول إلى حقائق الوجود عن طريق آخر غير طريق القرآن فرفضوها واعتبروها خطرًا على الدين ، وهم على حق في هذا الموقف إذا ذكرنا ما تعرض له الإسلام من تدبيرات وأخطار جاء بعضها من داخل أمة الإسلام وبعضها الآخر من خارجها مما ملأ قلوب أهل السُّنة والجماعة بالفزع ولم يعد لديهم من هدوء النفس أو حسن الظن بالدنيا والناس ما يأذن لهم في أن يستمعوا إلى كلام فيلسوف يتحدث في لغة هي أقرب إلى الألفاظ أو شطحات غلاة الشيعة .

ومن هنا فإن الفلسفة لم يكن لها من وجهة النظر الإسلامية وجود حقيقى في تاريخ الفكر الإسلامى ، ولكن فلاسفة المسلمين بما تميزوا به من فكر سوى وخلق متين وزهد في الدنيا وإقبال على كل ما يرتفع بالروح عرفوا كيف يوسعون لفلسفاتهم مكاناً رحباً في تاريخ الفكر الإنسانى .

وهذا هو الذى يعيننا فى هذه الدراسة ولهذا فإننا سندير الكلام هنا على خمسة من فلاسفة المسلمين بهروا الدنيا بمناهجهم فى الحياة والتفكير وما ألفوا من كتب جلية وكذلك النتائج الباهرة التى وصلوا إليها على رغم ما زعمه إيرنست رينان وأمثاله من أن الفكر الإسلامى والشرقى عامة غير خلاق أو مبدع بطبعه وتلك دعوى واهية فندها وأحسن الرد عليها إبراهيم بيومى مذكور بمنطقه الرقيق وأسلوبه السهل الممتع .

ونبدأ بالكلام على الكندى أبى يوسف يعقوب بن إسحاق المتوفى (٢٥٢ هـ / ٨٦٦ م) فيلسوف العرب الأول وهو رجل فاضل ونفس متعطشة أبدأ إلى العلم والمعرفة ، ولد فى الكوفة فى بيت عربى كريم فأبوه كان فيما يقال عامل الكوفة ومعظم المؤرخين ينسبونه إلى شجرة ملوك كندة ، وفى الكوفة درس ونضج ذهنه وظهر أمره ثم مضى إلى بغداد واتصل بالخليفة المأمون وحظى برعايته واستهوته علوم الأوائل فدرس الرياضيات والهندسة والموسيقى والطب وأقبل على ما وجدته فى دار الحكمة من كتب فلاسفة اليونان يلتمها التهاماً ، ودار الحكمة معبد علمى أنشأه الخليفة المأمون للقيام بنقل علوم الأوائل إلى العربية على أيدى مترجمين ذكرنا بعضهم ، وكانت مذاهب الاعتزال فى أوجها فدخل فيها ولكن أمره لم يشتهر بين كبار المعتزلة ، وأقبل على التأليف فكتب رسائل كثيرة جداً فى الرياضيات والهندسة والطب والنجوم والموسيقى ، ويقال إن عدد مؤلفاته بلغ حوالى ٢٨٠ مؤلفاً لم يبق لنا منها إلا رسائل قليلة منها رسالته إلى الخليفة المعتصم ورسالة أصغر كتبها لولى عهده أحمد وقد نشر الرسالتين مع دراسة طيبة الدكتوران أبو ريدة والخضرى ، وهو يتكشف فى هاتين الرسالتين عن افتتان بالأوائل وعلومهم وبالفلسفة بصورة خاصة ، فهى عنده صناعة الصناعات وحكمة الحكم وهى علم الأشياء بحقائقها بقدر طاقة الإنسان ، وغرض الفيلسوف هو الوصول إلى الحق عن طريق الفكر والتأمل والعمل ، ولكنه أغضب أهل السنة عندما قال : إن الفلسفة هى الجهد الذى يبذله الإنسان حتى تماثل أفعاله قدر استطاعته أفعال الله .

وقد جعل الكندى حياته عملاً كلها فهو لم يقتصر على الفلسفة بل درس الموسيقى وأتقن العزف وألف فى العلم الموسيقى ودرس الطب ومارسه وبرع فيه واشتغل بصناعة الأدوية وعالج صناعة السيوف وتكلم فى البصريات ، وهذا الجهد العظيم هو الذى طار باسم الكندى إلى أهل الغرب فى العصور الوسطى وبعض كتاباته التى ضاعت أصولها العربية نجدها اليوم فى ترجماتها اللاتينية .

والكندي مسلم صادق الاعتقاد في كل مناحي تفكيره فهو على خلاف ما يتهمه به خصومه ، مؤمن بالله ورسوله وكتبه وهو لا يسلم بكل آراء أرسطو كما فعل غيره من فلاسفة المسلمين ، وله كلام كثير جميل في الدفاع عن النبوة والوحى وينسب إليه ابن النديم في الرد على الملاحدة رسائل كثيرة .

وبلغ الكندي ذروة مجده أيام الخليفة المعتصم (٨٢٢ - ٨٤٢ م) ولكن نجمه أقل أيام المتوكل (٨٤٧ - ٨٦١ م) الذي أبطل بدعة الاعتزال فأصابت الكندي محنة ونهبت داره وأعطيت كتبه لآل شاكر المنجمين فظلت في حوزتهم حتى نالتهم المحنة بدورهم فنهبت دورهم وضاع ما فيها من الكتب بما في ذلك كتب الكندي ، وقد مات الكندي بعد موت المتوكل بخمس سنوات سنة (٢٥٢ هـ / ٨٦٦ م) بعد أن سجل اسمه في سجل الفكر العربي بصفته أول فلاسفة المسلمين ورائدهم في ذلك الميدان .

وإذا كان أول فلاسفة العرب عربياً صريحاً فكذا كان آخر كبارهم وهو ابن رشد ، وكلاهما كان آية في الذكاء والاطلاع والإقبال على العمل ، وهذه الحقيقة تنهض دليلاً ينقض ما ذهب إليه ابن خلدون من أن أعلام العلم في الإسلام كانوا من غير العرب في غالبيتهم .

وإذا كان الكندي رجلاً واسع المعرفة يضرب في كل علم ، فإن أول فيلسوف حق في تاريخ الفكر الإسلامي هو أبو نصر الفارابي (٢٥٩ - ٣٢٩ هـ / ٨٧٢ - ٩٥٠ م) وهو تركي الأصل والمولد عربي الفكر واللغة والثقافة ، واسمه أبو نصر محمد بن محمد بن أوزلغ بن طرخان ولد في فاراب في جمهورية قازاق السوفيتية اليوم في شمال شرق نهر جيحون في قلب آسيا ، ونشأ بطبعه زاهداً متصوفاً عاشقاً للعلم والفكر محباً للعزلة وقد دفعه حبه للعلم إلى الذهاب إلى العراق فدخل بغداد وقرأ الكثير من كتب الأواثل على يد أبي بشر متى بن يونس وكان من أقطاب المترجمين في دار الحكمة ، وعلى يده درس كتاب المنطق لأرسطو لارستطاليس ثم مضى إلى هران في شمال العراق وكانت داخلة في إدارة سيف الدولة الحمداني واتصل به الفارابي ودخل في خدمته زمنًا قصيرًا ثم عاد إلى بغداد ليواصل دراسة فلسفة أرسطو ثم زار مصر سنة (٣٢٨ هـ / ٩٤٩ م) وعاد إلى حلب وعاش في بلاد الحمدانيين حتى توفي سنة (٣٢٩ هـ / ٩٥٠ م) في دمشق عن ثمانين عامًا .

وكان الفارابي من أهل الإخلاص للعلم والزهد في الدنيا وخيرها فقد كان يستطيع أن يشغل أرفع المناصب ولكنه زهد في ذلك كله وعرض عليه سيف الدولة الأموال فاكتفى منها بأربعة دراهم في اليوم يقيم بها أوده ، وكان مع زهده بهي الطلعة حسن الصورة ميالاً إلى العزلة والخلوة بين أحضان الطبيعة ، قال ابن خلكان : إنه كان مدة مقامه في دمشق لا يرى غالباً إلا عند مجتمع ماء أو مشتبك رياض يؤلف كتبه هناك ، وقيل : إنه كان يسهر الليل في مطالعة الكتب على مصابيح الحراس فما كان لديه مال لمصابيح توقد طول الليل .

وكان الرجل واسع العلم بالتركية والفارسية إلى جانب العربية ومع ذلك فإنه لم يدرس اليونانية أو اللاتينية وهذا أمر يدعو إلى العجب فما دام مفتوناً بكتابات أرسطو وغيره من فلاسفة اليونان فلماذا لم ينفق بعض وقته في دراسة اليونانية واللاتينية ليقراً الكتب في أصولها بدل الاعتماد على المترجمين ؟ يقول جميل صليب في كلامه عن الفارابي : وترجع مكانة الفارابي إلى أنه أنشأ مذهباً فلسفياً كاملاً ، وقام في الفلسفة العربية بالدور الذي قام به أفلوطين في الفلسفة الأفلاطونية الحديثة ، وكما لقب أرسطو بالمعلم الأول فكذلك لقب الفارابي بالمعلم الثاني . وقد خلف الفارابي كتباً كثيرة جداً معظمها اقتباسات من أرسطو . أما آراؤه الفلسفية ففيها شوك كثيرة لا يرضى عنها أهل الإيمان ولكنها أعجبت أهل الغرب فترجموا الكثير من كتبه إلى اللاتينية ، وهذه يد كريمة نحمدها له ، إنه واحد من أولئك الذين وضعوا الفكر العربي في صميم الفكر الإنساني ، والفارابي في تاريخ الفكر الإنساني شيء عظيم واسمه عندهم لاتيني الصورة الفارابيوس .

ولكننا نحن معاصر العرب والمسلمين نقرأ الفارابي ونشعر أنه بعيد عنا جداً ، فهو عقل عظيم فعلاً ولكن قلبه خال مما نسميه نحن ببشاشة الإسلام وعندما أقرأ كتابه « آراء أهل المدينة الفاضلة » أحس أن هذا الرجل لم يقرأ القرآن قراءة تدبر مرة واحدة ولكنه قرأ كتب أفلاطون مرات ، وهو لا يعرف أمة الإسلام التي تقوم أساساً على القلوب ، وإذا كان الغزالي قد قال : القلب خارج عن ولاية الفقيه ، فإنني أسمح لنفسى بأن أقول : الإسلام خارج عن ولاية الفارابي وإن عقله لم يكن مسلماً لا ولا كان قلبه ، ونظريته في النبوة ليست إسلامية ولا وجود للقرآن أو السنة في فكره .

* * *

وندخل إلى عالم ابن سينا فنجد أنفسنا أمام رجل آخر كل ما فيه يحببه إليك ، فهو صورة إنسانية جميلة ظاهراً وباطناً وهو في داخل نفسه مسلم صادق يعرف القرآن معرفة جيدة حتى إن له في تفسيره مشاركة ، وهو فيلسوف بمعنى الكلمة يفكر تفكير الفلاسفة ويعيش حياة فيلسوف أبيقورى ، وهو يحب الحياة ويقبل عليها ويعيشها بكيانه كله وهو يؤدي صلواته ولكنه يجد متعة في شيء من الخمر وهو لا يخفى ذلك ولا ينافق ولا يتظاهر ولا يخدع نفسه أو الناس .

وابن سينا أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي قضى عمره كله ينتقل في نواحي إيران فلم يدخل بلاد العرب قط ولم يحج إلى بيت الله على قدر علمي إلا أنه أجمل مثال للفارسي المتعرب روحاً ومنطقاً ، ولد في قرية أخشنة قرب بخارى سنة (٣٧٠ هـ / ٩٨٠ م) وتوفي في همذان سنة (٤٢٨ هـ) بعد حياة قصيرة لم تزد على ٥٧ سنة ولكنها كانت حياة رحة عميقة شاملة فقد نال الوزارة وتمتع بالسلطان والجاه ، ولكن هواه الحقيقي كان العلم ، وقد أعطانا السمرقندي في كتاب « جهار مقالة » أى المقالات الأربع صورة بديعة لفيلسوف عالم وزير يبدأ نهاره قبل الفجر فيكتب ما تيسر له حتى يرفع أذان الفجر فيصلي مع تلاميذه ويجلس إليهم بعد ذلك يعلمهم ثم يخرج إلى دار الوزارة في موكب يحيط به ألف فارس ويعود إلى بيته بعد ذلك فيتناول غداءه ثم يستريح بعض الوقت ويصحو فيصلى العصر ثم يمضى إلى أميره فيجالسه وينادمه حتى صلاة المغرب ويعود إلى بيته ليجتمع بتلاميذه حتى إذا فرغوا من القراءة حضر المغنون وتهاى مجلس الشراب بألاته .

وقد وهب الله هذا الإنسان الرفيع عقلاً من نور ونفساً من صفاء ، فأحاط بكل علوم عصره وألف شيئاً عظيماً جداً في كل فن ، وهو فيلسوف عظيم وطبيب أعظم وقد طبقت شهرته الآفاق في الطب ، وكتابه المعروف باسم القانون في الطب طبع في روما سنة ١٥٩٣ ، وكان قد ترجم إلى اللاتينية في القرن الثانى عشر وطبعت هذه الترجمة في أوروبا أكثر من عشرين مرة وظل الكتاب يدرس في جامعات الغرب إلى القرن الثامن عشر وقد أحصى الأب جورج شحاته قنواتى من مؤلفاته ٢٧٦ رسالة وكتاباً تشمل كل فرع من فروع المعرفة ، وكتبه الرئيسية الثلاثة : الشفاء ، ومختصره المسمى بالنجاة ، والإشارات والتنبيهات موسوعات رفيعة المستوى . أما كتبه الإسلامية فعنها رسالة

التوحيد وإثبات النبوة ورسالة القضاء والقدر وقصيدة الجمانة الإلهية في التوحيد ،
وكتاب الشفاء يتناول قضايا الفلسفة الكبرى : المنطق والرياضيات والطبيعات وإذا
كان قد سار على نمط أرسطو في مبادئه وابتعد عنه في غاياته ومقاصده فمرد ذلك إلى
نزعتة الأفلاطونية ورغبته في بناء فلسفة جديدة تجمع بين مبادئ الفلسفة اليونانية
وأصول العقيدة الإسلامية (جميل صليب : تاريخ الفلسفة العربية ص ٢١٤) .

وقد ساهم ابن سينا — أو افيسينا كما عرفه أهل الغرب — في بناء الفكر العالمى
بأوفر نصيب وهو من مفاخر الفكر الإسلامى وما زال مشهد موته يؤثر في نفوسنا إلى
اليوم ، فقد كان الرجل شيخ الأطباء وشيخ المرضى في آن معاً لأن حب الحياة وإقباله
عليها أصابه بداء القولنج وهو الالتهاب المزمن المتقرح للمصران الغليظ وقد عجز عن
مداواته ، فلما أيقن باقتراب المنية اغتسل وتاب إلى الله وتصدق بماله على الفقراء وأعتق
ممالিকে ثم أصابه نزيف حاد سقطت معه قوته وأسلم روحه لبارئها .

وننتقل إلى أقصى غرب مملكة الإسلام فنلقى حشدًا من أهل الفلسفة نقف منهم
عند اثنين : ابن طفيل وابن رشد وهما أندلسيان .

فأما ابن طفيل فهو أبو بكر محمد بن عبد الملك القيسى (٤٩٤ - ٥٨١ هـ / ١١٠٠ -
١١٨٥ م) وأصله من وادى آش وهى مدينة جميلة في مداخل جبال البشارات شمالي
غرناطة ويسمونها هناك جواد يتس ، ودرس الطب والفلسفة وله في الطب أرجوزة لم
تطبع بعد ، أما شهرته فترجع إلى قصته الفلسفية المسماة بـ « حى بن يقظان » وهى
حكاية طفل ولدته أميرة وأرادت التخلص منه فألقت به في جزيرة مهجورة من جزائر
الهند وهناك تبنته غزالة فأرضعته حتى نما وأدرك وأخذ يفكر في أمر نفسه ثم التقى
برجل فيلسوف زاهد يسمى أسال ، علمه الكلام والتفكير وما زال حى بن يقظان يتدرج
في التفكير مرحلة بعد مرحلة في رعاية صاحبه أسال حتى وصل إلى العلم بالله ثم مضى
مع أسال إلى عالم الناس فراعاه ما وجد من شقاء الناس لغلبة الشهوات الجسدية عليهم
فتركهم على حالهم وعاد إلى جزيرته مع صاحبه فعاشا ينعمان بلذة العقل والإيمان
والتححرر من الشهوات حتى أدركهما الموت .

قصة جميلة نابغة من قلب مسلم مؤمن يجد المتعة الكبرى في الوصول إلى الله عن
طريق الفكر والاستنباط ولهذا فهى تسمى أسرار الفلسفة الإشراقية ، أى إشراق النفس

بنور الله ، وقد ترجمت إلى لغات العالم أجمع ، وقد قال فيها غرسيه خموس : إنها من أعظم المؤلفات التي أهداها الفكر العربي إلى الفكر العالمي ، أما أورتيجا أى جاست فيلسوف إسبانيا الأوحده فقال إنه بعد أن قرأ قصة حى بن يقظان فى ترجمتها الإسبانية ارتفع الفكر الإسلامى فى نظره درجات .

وننتقل إلى أبى الوليد محمد بن رشد الأشبيللى (٥٢٦-٥٩٥ هـ/١١٢٦-١١٩٨ م) الذى عاش فى ظل الموحدين مثله فى ذلك مثل أستاذه ابن طفيل ، ونحن مع ابن رشد نعيش مع فقيه مسلم متفلسف ألف فى الفقه الإسلامى كتاباً فريداً هو « بداية المجتهد ونهاية المقتصد » ودافع عن الإسلام والعقيدة السمحة فى كتابه البديع « الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة وتعريف ما وقع فيها بحسب التأويل من الشبه المزيفة والبده المضلة » ، وأشهر كتبه عندنا « فصل المقال وتقدير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال » وهو أحسن ما ألف المسلمون فى التوفيق بين مذاهب الفلاسفة ومذاهب أهل الاعتقاد .

أما فى الفكر العالمى فابن رشد يسمى أفرويش وهو اسم عرف به عند أهل بلده من الأندلس فى حياته وسموه أفرويش وهو أعظم من درس فلسفة أرسطو ، وعكف على شرحها فى العصور الوسطى ، وهو شيخ أهل الغرب فيها ولم يقتصر جهده فى ميدان الفلسفة على شرح أرسطو ، بل هو فيلسوف أصيل وقد ترجمت كل مؤلفاته وشروحه الفلسفية إلى اللاتينية وعكف عليها أهل العلم والفكر يدرسونها هناك وكانت من أصول الدراسة فى جامعات باريس وكيمبردج وسالرنو ، فهو أستاذ من أساتذة الدنيا وشيخ من شيوخ الدنيا ، وفيه ألف إيرنست رينان كتاب « ابن رشد والرشدية » .

وقد شقى ابن رشد بالفلسفة فقد عاش فى عصر الموحدين (٥٢٦ - ٥٩٥ هـ / ١٢٢٦ - ١١٩٨ م) ورضى عنه الخليفة أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن على ثانى خلفاء الموحدين وغضب عليه خليفته أبو يوسف يعقوب المنصور وتقرب بإيذائه إلى الفقهاء والجماهير فأمر به أن يوقف فى مجلس فسبح وأمر الناس أن يمرؤا به ويصقؤا فى وجهه وهذا كان عندنا جزء شيخ مؤمن غامر بنفسه حباً فى العلم وأوسع للفكر الإسلامى مكاناً رحباً فى تاريخ الفكر الإنسانى .

وحياة ابن رشد على هذه الصورة توجز مصائر أهل الفكر الحر فى عالمنا العربى غير السعيد ، وهو مصداق لما بدأت به هذه الفصول من أن القاعدة الجارية عندنا هى أنا أفكر فأنا غير موجود !!!

obeikandi.com

الصُوفِيَّةُ : وَضْفَةُ شَغْبِيَّةٍ لِعِلَاجِ أُمَّةِ الْإِسْلَامِ مِنْ حَالَةِ اكْتِنَابِ نَفْسِي جَمَاعِي

التصوف داخل عالم الإسلام وخارجه ظاهرة نفسية وجدانية ، ومن ثم فما كان ينبغي أن يكون له مكان في بحثنا هذا عن تاريخ الفكر العربي ، ونحن مهما نقرأ من كتابات أعلام الصوفية في الإسلام من الحارث بن أسد المحاسبي إلى أبي حامد الغزالي ومحبي الدين بن عربي ، فإننا لن نجد فيها فكرًا بل عاطفة ووجدانًا ، وحتى إذا وجدنا فيها فكرًا فإنه فكر خاص لا يفهمه أو يستسيغه إلا الذين أوتوا بطبعهم ميلاً وجدانياً وتذوقاً روحياً يمكنهم من الاستمتاع بكتابات الصوفية ، وإدراك مغازيها ومضامينها وهذا يفسر لنا كيف أن أكبر من أحب الفكر الصوفي الإسلامي ودرسه وكتب عنه هو رجل إنجليزي من أهل اليسار رينولد ألن نيكلسون Renolad Allen Nickalson وكان أستاذًا للغات الشرقية وحضارة الإسلام في جامعة كيمبريدج ، وقد وهب معظم جهده لدراسة التصوف الإسلامي ، ومقدمته لكتاب « اللُّمَع » لأبي نصر السراج تدل على تذوق حقيقي لكلام صوفية المسلمين .

وقد نشر وترجم إلى الإنجليزية من كتب الصوفية المسلمين ما بين عربية وفارسية ما لم يدانه فيه أحد من المتخصصين في التصوف والفلسفة عندنا ، هذا والرجل إنجليزي مسيحي ولا يعلل شغفه بالتصوف الإسلامي إلا بأنه هو نفسه كان صاحب مزاج صوفي ، وهذا المزاج هو الذي أعانه على تذوق كتابات السراج والعطاء وابن القارض ومحمد إقبال وكانت في إقبال - فيلسوف الشعر الإسلامي المعاصر - نزعة صوفية ظاهرة ولكنى عندما رددت النظر في ظاهرة التصوف في عالم الإسلام تبينت أنها في مجموعها صورة من صور ردود الفعل التي نجمت عن الظروف السياسية والاجتماعية السيئة التي عاشت فيها شعوب أمة الإسلام من منتصف العصر الراشدي ، وهي ظروف جعلت تسوء عامًا بعد عام فإذا كان المسلمون أنصاف تعساء في العصر الأموي فقد أصبحوا تعساء في العصر العباسي الأول ، وتعساء بؤساء في

العصر العباسى الثانى ، ثم تعساء بؤساء فقراء إلى بداية العصر العثمانى ، ثم تعساء بؤساء فقراء أشقياء بلا أمل فى النجاة إلى مطالع العصر الحديث .

وهذه الظروف السياسية والاجتماعية الأليمة التى عاشتها أمم الإسلام هى التى جعلتها كلها تدخل فى حالة نفسية عامة يمكن أن نسميها بالاكتئاب الجماعى -Eallac-tine de Jessian فلم يسلم من هذا الاكتئاب خليفة أو أمير أو خفير أو فقير ، فأما أهل القوة والغنى واليسار فقد التمسوا الخروج أو الهروب من حالة الاكتئاب هذه بإغراق أنفسهم فى بحار الخمر والقيان والنسوان ، وقد روينا فيما روينا حالة الخليفة المتوكل الذى أراد التخلص من القادة الأتراك الذين فرضوا سلطانهم عليه فدبر مؤامرة للفتك بهم ، وفى انتظار ساعة الصفر جلس مع ندمائه يشرب ويأكل حتى شرب أربعة عشر رطلاً أى كوباً من الخمر ، وفى سكرة الخمر قتله ابنه وتولى مكانه ، وإليك هنا حالة الخليفة القاهر العباسى (شوال ٣٢٠ - جمادى الأولى ٣٢٢ هـ / أكتوبر ٩٢٢ - مايو ٩٣٤ م) ، الذى خلع وخلفه المستكفى فأراد القاهر أن يغيظ خلفه فخرج يوماً ووقف بجامع المنصور يطلب الصدقة من الناس وقصد بذلك التشنيع على المستكفى ، فرآه بعض الهاشميين فمنعه من ذلك وأعطاه خمسمائة درهم ، ولما علم المستكفى بذلك منعه من الخروج وظل محبوساً إلى أن مات وذلك فى عهد الخليفة الطائع لله (٣٣٤ - ٣٦٣ هـ) (الفخرى لابن طباطبا ص ٢٤٩) فإن لم تكن هذه أحوال ناس مرضى نفسانيين فقل لى كيف يكون مرض النفس ؟

وإذا كان هذا هو حال الخلفاء فتصوّر أنت كيف كانت حال غير الخلفاء من عامة الناس ! حالة الاكتئاب الجماعى هذه هى التى أتاحت الفرصة للطامحين إلى السلطان وأذكياء المغامرين ليزعموا للجماهير المريضة البائسة أن الخلاص من مشاكلها لن يكون إلا على يد المهدي المنتظر ، وهو رجل من عترة المصطفى ﷺ يختاره الله سبحانه ويخرجه إلى الدنيا وقتما يشاء ليملاً الدنيا عدلاً ، وهو الآن مستتر وهم وحدهم يعلمون أين يكون لأنهم دعائه ، وهم درجات وطبقات ، ولكى يكون الإنسان من السعداء الذين تشملهم نعمة المهدي لا بد أن يؤدى الزكاة إلى الدعاة ، والداعى يأخذ الزكاة ويدس فى جيبه ما يشاء ويعطى الباقي للذى فوقه ، فالذى فوقه وهكذا حتى لا يصل إلا عُشر المجموع إلى المهدي المنتظر المستتر بقرية تسمى سلمية من بلاد الشام .

فتصور أن مجموع ما كان يصل إلى المهدي المستتر هذا بعد كل تلك السرقات أصبح مع الزمن أكادسًا تملأ سراديب حفرها تحت الأرض يبلغ طول بعضها كيلو مترات وعمقها فوق العشرين مترًا ، وشيئًا فشيئًا اتسعت شبكة الدعاة هؤلاء حتى شملت كل بلاد الدولة الإسلامية ؛ لأن عملية الدعوة أصبحت أكبر بزینس Business خلال القرن الهجري الثالث ، وفي نهايته سنة (٢٩٦ هـ / ٩٠٩ م) ظهر المهدي المنتظر في القيروان في تونس بعد تمهيد طويل ، وسمى نفسه عبيد الله المهدي فإذا به لا هو بمهدي ولا هو بمنتظر ، وربما لم يكن من نسل الرسول قط ، وأول ما فعله هو أن قتل داعي دعائه أبا عبد الله الشيعي وأخاه أبا العباس المحظوم وبموتها ماتت أسرار الدعوة ومخازن أموالها وتلك هي الدولة الفاطمية التي أغرقت بلاد المغرب في الدماء قبل أن تنتقل إلى مصر سنة (٣٦٢ هـ / ٩٧٢ م) أيام خليفتها الرابع وهو المعز لدين الله ، والمعز انتقل إلى مصر بخلافته وأهله وجنده حتى عظام أجداده ، فقد أبى له كرمه إلا أن يقدمها هدية لأهل مصر الذين حلت بهم السعادة بحلوله في أرضها ، ولكن أهم شيء حمله المعز إلى مصر هي أمواله وهذه لم يهبها إلى أهل مصر ؛ لأنها كانت قطارًا طويلًا من الجمال وكل جمل يحمل حجرى طاحون من الذهب الخالص وزنهما قنطار ، وهذه هي الطريقة العجيبة التي حمل بها هذا المعز قناطر الذهب التي تجمعت من أموال الزكاة والذي جمعه المعز وسلالته من أموال المصريين لم يسمع بمثله حتى أقفلت مصر إفلاسًا وعرفت المجاعة الكبرى أيام المستنصر وتلك هي نعمة المهدي المنتظر الذي قال فيه شاعر عظيم هو ابن هانيء :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فانت الواحد القهار

وهو بيت من الشعر يدخل به ابن هانيء هذا جهنم من كل باب .

أما أهل السنة الذين اعتصموا بالقرآن والسنة فلم يجدوا لأنفسهم علاجًا هو أنجع من التجمع والجمود والعودة إلى الماضي على ما وصفناه .

وبقيت هنا وهناك نماذج قليلة من البشر لم يعجبها الحل الشيعي ولا أقنعها الحل السنّي ، وهذه اتجهت بنفوسها إلى الله مباشرة فهو سبحانه الشافي المعافي ، والطريق

الذى سلكوه إلى الله هو طريق الزهد والتخلّي عن الدنيا والاعتصام بالفقر ؛ لأن الفقير المفلس لا يطمع فيه أحد فلا هو يخشى أن يعتدى عليه لص أو يقتله سلطان ، وهكذا أصبح المغاليس سعادة الدنيا وأكثرهم أمناً وأماناً ، وقد حكى التنوخى فى « نشور المحاضرة » (مائة الحديث) حكاية رجل ضاقت به الدنيا فركب حماره ووقف على باب أحد الأغنياء وقال له : أبيعك نفسى فأكون عبداً رقيقاً لك وتطعمنى . فنظر الرجل إليه وقال : لا ، ولكن آخذ الحمار فهو أنفع . فقال الرجل : وتأخذنى معه أخدمه .

فى أمان الفقر ووراء درع الزهد مضى أولئك الناس يلتمسون الطريق إلى الله ، ولا بد أن نسلم أن هناك ناساً يفطرم الله على الشوق إلى المجهول والاتجاه إلى البحث عن راحة النفس فى الزهد وتعذيب النفس ، فكما يوجد فى الهند والصين ناس يجدون السعادة فى الخلوة والزهد وتعذيب النفس ، فقد عرفت المسيحية رجالاً مثل سمعان العمودى الذى قضى معظم عمره قاعداً على رأس عمود رخامى يصلى لله ويتعبد من فوقه وكأنه لم يكفه هذا قصار يطلى نفسه بالعسل حتى تزحف عليه جيوش النمل والهوام ، وعندنا فى الإسلام وفى نفس القرن الثالث الذى ذكرناه رجل يسمى أبا سعيد ابن أبى الخير علق نفسه من رجله بحبل وتدلى فى بئر عامر بالهوام ووجد فى ذلك طريقاً للسعادة والخلال . وهذا الطراز الفريد من الناس عرفوا عندنا بالصوفية قضوا أعمارهم باحثين عن الطريق إلى الله ، وبعضهم وصل إلى الاتصال بالله فى زعمه دفعة واحدة كأنما دعاهم الله سبحانه إلى نفسه ؛ وهؤلاء هم أصحاب الحالات أو الأحوال ، وهم درجات لأنهم انتقلوا من حالة الجهل والحيرة إلى حالة العلم والرضا الإلهى ، والله سبحانه ألقى فى قلوبهم العلم كله إلقاء نعمة منه وفضلاً ، ومثالهم المشهور لدينا هى رابعة العدوية البصرية وهى أم الخير رابعة بنت إسماعيل مولاة آل عتيك التى كانت حية ترزق سنة (١٨٥ هـ / ٨٠١ م) ، وكانت تهيم فى وديان الضلال حتى هبطت عليها رحمة الله فزهدت فى الدنيا واعتزلت الناس ، ثم أصبحت من أصحاب الأحوال ورزقها الله العلم كله وأجرى على لسانها الشعر الجميل فى العشق الإلهى ، وروى الناس عنها شعراً جميلاً لانعرف إن كانت قد قالته حقاً أم هو نسب إليها مثل قولها تخاطب الله سبحانه وتعالى :

أحبك حبين : حب الهوى وحبك ، لأنك أهل لـذاكـا
فأما الذى هو حب الهوى فشغلى بذكرك عن سواك

وأما الذى أنت أهل له فكشفك للحجب حتى أراك
فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

والوصول إلى هذه « الحالة » مفاجأة تعتبر عندهم نعمة الله الكبرى ، فيدخلون فى حالة « الوجد » التى تجعلهم لا يجدون لذة إلا فى الزهد والبعد عن الناس والنشوة بالوجد أى الحب الإلهى ، ومن الأمثلة الدرامية لذلك حكاية رجل يسمى جعفر بن حرب المتوفى سنة (٢٤٨ هـ / ٩٥٩ م) وكان فى نعمة كبيرة ، فإذا هو ذات يوم يجتاز الشارع فى موكبه إذ سمع قارئاً يقرأ قول الله سبحانه ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾ . فصاح : بلى والله قد آن ! ونزل عن دابته وفرق جميع أمواله ولزم العبادة حتى مات ، وفى نفس السنة توفى عالم زاهد كان يصوم الدهر ويفطر كل ليلة على رغيف ويترك منه لقمة ، فإذا كانت ليلة الجمعة تصدق بذلك الرغيف وأكل كل تلك اللقم التى استفضلها (شوقى ضيف ، تاريخ الأدب العربى ٥ / ٢٦٩) ، ومثل ذلك كثير جداً فى كتب الصوفية وطبقاتهم .

وهناك نفر آخر من أهل الزهد والتصوف ، أى لبس الصوف لا تنزل بهم نعمة الوجد نزولاً مفاجئاً دون تعب ، ولا بد أن يشقوا طريقهم إليها ، وينتقلوا وهم فى الطريق وحياة الزهد من درجة إلى درجة حتى يصل إلى الوجد أو الإشراق أى إشراق النفس بنور الله ، وهو عندهم الوصول إلى الله وصاحبه يسمى الواصل ، وتلك الدرجات عندهم تسمى المقامات ولهذا فهم أصحاب المقامات وأولها عندهم مقام الورع ثم مقام الزهد ثم الفقر ثم الصبر ثم المراقبة ثم الرضا ثم القرب ، ومن القرب ينتقل السعيد منهم إلى حال المحبة أى محبة الله ، وكل هذه مصطلحات أخذوها من ألفاظ القرآن الكريم وبينهم خلاف فى ترتيبها .

وأول من نعرفه من أصحاب المقامات هؤلاء هو ذو النون المصرى ، وهو أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم المتوفى سنة (٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م) ، وهو من أهل أحميم من صعيد مصر ، وهو أول من نسمع أن اسمه ذو النون من المسلمين ، والأغلب أن جداً من أجداده الأقباط هو الذى أسلم وكان اسمه زنون Zenon وهو اسم علم إغريقى معروف ، فإذا صدق هذا الحدس فيكون ذو النون المصرى سلباً متأخراً من قوم أنطونيوس المصرى الذى تقرر كتب التاريخ أنه ابتكر الرهبنة وأدخلها المسيحية ،

والرهينة كانت عندهم الانخلاع عن الدنيا والخروج إلى البرية لمحاربة الشيطان عدو الله ومسكنه البرية أى الصحراء ، وأنطونيوس انتصر على الخوف من الشيطان وخرج إلى الصحراء ليغزوه في عقر داره ، والقصة كلها مروية في كتاب لاتيني يسمى حياة أنطونيوس Vite Antamii ، وأنطونيوس المصرى هذا لقي في إحدى جولاته في الصحراء الأنبا بولا السواح أى الجوال في الأرض في مواجهة عدو الله إبليس .

وعلى هذا فلا يكون ذو النون المصرى قد طفر من فراغ بل هو مواصل لتقليد مصرى قديم له قواعده وتقاليده ، لأن رجلاً آخر من أقباط مصر هو الأنبا باخوميوس ابتكر فكرة الأديرة ، أى الانقطاع في الصحراء لمحاربة الشيطان جماعة فنشأت الأديرة التى أصبحت تقليدًا مسيحيًا عظيمًا ، وباخوميوس وضع للديارين أو سكان الدير نظاماً في الحياة والعبادة ، وذو النون المصرى يبدو لنا كأنه صدق بعيد لذلك كله .

وإذا كان الزهد والتصوف - تاريخياً - رد فعل لحالة اليأس والكآبة التى كانت أمة الإسلام تعيشها خلال العصر العباسى خاصة ، فإن ذا النون كان أول من تكلم عن المعرفة الصوفية التى تأتى إلى الإنسان من الله قذفاً في القلب دون دراسة أو عناء ، فهى معرفة تتأتى لصاحبها نتيجة للخلوة الطويلة والزهد في الدنيا والرياضات الصوفية ، فهى إذن معرفة يلقيها الله في قلب المؤمن ، فالله سبحانه يكشف عن قلبه الحجاب ويطلع على العلوم كلها فهى معرفة باطنة ولها أحوال ومقامات ، وقد سئل ذو النون : كيف عرفت ربك ؟ فقال : عرفت ربى بربى ، ولولا ربى ما عرفت ربى ، وكان ذو النون يرى أن الوصول إلى الوجد والمعرفة الإلهية فضل يؤتاه الله لمن يشاء بعد أن يتأهل لذلك بالصبر والعبادة وانكسار النفس ، وهى لهذا امتياز مقصور على الذين يستحقونه ، ومن ثم فلا يجوز أن تتكشف أسرار الصوفية لكل الزهاد .

ويجىء أبو يزيد البسطامى (ت ٢٦١ هـ / ٨٧٥ م) وهو أبو يزيد طيفور بن عيسى بن آدم ، وهو فارسى من أهل بسطام في خراسان ، فيمضى بالفكر الصوفى خطوة أخرى في طريق الرياضات الدينية فيقول : إن الإنسان إذا استمر في المجاهدة وكان صادقاً في زهده وحببه لله فنيت ذاته في ذات الله وأصبح هو والله شيئاً واحداً ، وانتشر مذهبه هذا بين متصوفة الفرس حتى أصبح بطلاً قومياً ونسبوا إليه معراجاً روحياً إلى السماء فاقترب من العرش واستضاء بأنواره وذاع صيته بين الأتراك

العثمانيين في العصر الأول من عصور تاريخهم ، وهو عصر الغزاة ، فتبرك باسمه رابع سلاطينهم وهو بايزيد وهو في التركية بايازيت ، وأخذ نفس الاسم سلطانهم الثامن وهو بايازيت الثاني ، وعلى يديه أصبح للصوفية لغتهم الخاصة التي ينفردون بها مثل قوله : للخلق أحوال ولا حال للعارف لأنه محيت رسومه وفنيت هويته بهوية غيره ، وغيب آثاره بآثار غيره و « غيره » هذا هو الله سبحانه ، وفي مثل هذا الكلام نرى كيف أن التصوف شفى نفسه من حالة الكآبة بنسيان نفسه وفقدان شخصيته واتخاذ شخصية أخرى تعيش في عالم آخر بعيد عن عالم الناس وهو عالم الوجد الصوفي ، ومصداق ذلك قوله : منذ ثلاثين سنة كان الحق مرآتي ، فصرت اليوم مرآة نفسي لأننى لست الآن من كنت ، ومثل هذا الكلام كان يصدر عن أبي يزيد في حالة من حالات غيوبته عن الدنيا والواقع .

وفي نفس طريق المجاهدة الصوفية سار الجنيد (ت ٢٩٧ هـ / ٩١٢ م) وهو أبو القاسم الجنيد بن محمد ، وهو فارسي سُنّي من أهل نهاوند ، وكان يرى أن الصوفي لا ينبغي أن ينقطع عن الدرس والعلم انتظاراً للعلم اللدني ، الذي يأتي من لدنه أي من عند الله قذفاً في القلب ، وليس هذا بغريب ؛ لأن الجنيد كان فقيهاً واسع العلم وقد ذهب إلى أن الصوفي يصل إلى الفناء في ذات الله عن طريق الرياضات والمجاهدات والزهد في الدنيا مع الإقبال على العلم .

وفي حلقة الجنيد ظهر الحلاج ، وهو أبو مغيث الحسين بن منصور (٢٤٤ - ٣١١ هـ / ٨٥٨ - ٩٢٢ م) ، وهو فارسي من أهل البيضاء قرب اصطخرى وقد ذهب مع مذهب الاتحاد بالله عن طريق المجاهدات والخلوات والسياسة في الأرض إلى درجة لم يسبقه إليها غيره فقد كان فيما يبدو يعاني من اضطراب شديد نفسى جعله يهيم في وديان بعيدة من التخيل المريض ، وصار يقول عبارات مثل : أنا الحق أي أنا الله ، وقد قضى عمره يتجول في الأرض وحج مرتين ، وأمثال هؤلاء الناس من أهل التخريف الذي نسميه بالشطح يفتنون الجماهير بما يقولون من عبارات تجمع بين الجنون والحكمة ، وهو الصورة الخالدة في تاريخ الفكر العربي للمجذوب الشعبي الذي يستولى على الباب العوام فينسبون إليه الكرامات والخوارق ، وقد تبرأ منه شيخه الجنيد ، وقد وصل في بعض سياحاته إلى الهند وأخذ عن مجازيبيها أعمالاً عجيبة تشبه السحر فافتنت به

الجماهير فأسرف في شطحاته ليستزيد من إعجاب الجماهير وقد بلغ به ذلك مبلغاً جعله يقول أشياء تخرجه عن الإسلام جملة ، وهذا هو الذى أخاف الدولة وأهل السنة منه خاصة وقد كانت له قدرة على صياغة أشعار غريبة تطير في الناس طيراناً مثل قوله يخاطب الله سبحانه :

مزجت روحك في روحي كما تمزج الخمرة بالماء الزلال
فإذا مسك شيء مسني فإذا أنت أنا في كل حال

ولا ندري إن كان الحلاج قد وصل به الهياج النفسى إلى الدرجة التى أخرجته عن الإسلام فجعل يقول : إن روح الله سبحانه حلت فيه ، ولكن الذى لا شك فيه هو أن الرجل وصل به الوجد إلى درجة جعلته أشبه بصورة السيد المسيح في أخريات أيامه ، وهنا أفتى الفقهاء بكفره وقبض عليه رجال الدولة وحاكموه وحكموا بموته ونفذوا الحكم فيه على ملأ من الناس .

وفي موقف الموت كان الحلاج لا يخشى الصلب حياً ، فنظر إلى خشبة الصلب والمسامير التى ستدق في جسده وقال : هؤلاء عبادك قد اجتمعوا لقتلى توصياً لديك وتقرباً إليك فاغفر لهم ، فإنك لو كشفت لهم ما كشفت لى لما فعلوا ما فعلوا ولو سترت عنى ما سترت عنهم لما ابتليت بما ابتليت ، وهى عبارة جعلت المستشرق الفرنسى لوى ماسينيون يرى أن أبا منصور الحلاج قد تسامى به الوجد حتى وصل به إلى لباب المسيحية بل المسيح نفسه ، فأمضى سنوات طويلة من عمره يجمع أخبار الحلاج وأشعاره وكتب كتابه المشهور « محنة الحلاج » Lapassiomdap Happay وهو كتاب جليل الظاهر خبيث الباطن .

ومن حسن الحظ أن غالبية أهل التصوف لم يصل بهم الهرب من الواقع الكئيب إلى هذا الحد ، فظلوا في موقف وسط بين العلم والوجد الصوفى الذى هو في الحقيقة هروب من الواقع ، وعلى هذا المذهب سار القشيري أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن وهو عربى (٢٧٦ — ٤٦٥ هـ / ١٠٦٨ م) ورسالته المنسوبة إليه (القشيرية) مزاج مقبول من العلم والتصوف وهى تعود بنا إلى الخط المأمون : خط المحاسبى ومن سار في طريقه حتى نصل في النهاية إلى أبى حامد الغزالى وهو أجمل صورة وصل إليها التصوف الإسلامى ، فهو تصوف عاقل يقوم تصوفه على العلم الواسع والفقہ الحسن

مع الزهد في الدنيا والتماس الصفاء النفسى عن طريق التعبد والرياضات ودره أعماله وهو « إحياء علوم الدين » كتاب علم وتصوف في آن واحد .

ولكن مفكرًا مسلمًا آخر هو ابن عربى لم يستطع الوقوف عند هذا الحد المأمون الذى وقف عنده الغزالي ، وهو أبو بكر محمد بن على بن عربى (٥٦٠ — ٦٢٦ هـ / ١١٦٤ — ١٢٤٠ م) وهو أندلسى من أهل مرسية نشأ في بيت عربى قديم ودرس القرآن والسنة والفقہ على يد اعلام بلده ، ولكن مزاجه العصبى الشديد الحساسيه مال به إلى طريق التصوف ، وجددير بالذكر أن العصر الذى عاش فيه ابن عربى كان عصر المحنة الأندلسية الكبرى التى وصلت إلى ذروتها في أواخر العصر الموحدى وهو العصر الذى عاش فيه ابن عربى ، لقد وصل ابن عربى في مجال العلوم الدينية إلى أرفع الدرجات ولكن مزاجه الخاص مال به إلى الزهد والتقشف والسياحة في الأرض فخرج عن الواقع تمامًا ، وأصبح يعيش في عالم روحى وجدانى منفصل عن الدنيا ، وفي سياحاته اكتسب علمًا كثيرًا ومر بأحوال صوفية متوالية ، فتصور أنه لقي الخضر وهو نبي خيالى خالد لا يموت لا نزال نراه في أخبار الفقهاء ، والصوفية يقولون : إنه عبد الله الذى لقيه موسى عليه السلام ، وفي ليلة من الليالى تصور محبى الدين بن عربى أنه تزوج زواجًا صوفيًا بكل نجوم السماء ، وفي سياحاته مر بمصر وآسيا الصغرى وبلاد الروم ، وقد حج ابن عربى أكثر من مرة وخلف وراءه تراثًا من الأدب الصوفى جليلًا ، وكتابه الأشهر « الفتوحات المكية » كتاب فقه وتصوف في نفس الوقت لأن ابن عربى لم يفقد أبدًا الاتصال بالحقائق الإسلامية الكبرى ولكن اللغة التى كان يستعملها في نثره وشعره جعلته يقول أحيانًا كلامًا يتصور معه قارئه أنه مسلم مسيحي ، وهذا هو الذى فتن فيه عالمًا إسبانيًا جليلًا من أهل الاستشراق وهو ميغيل أسين بلاتىوس - Mi-guil Asin Papadis الذى ذكرناه في حديثنا عن الغزالي فأطال دراسة حياته وكتبه وكتب فيه كتبًا أجدها « الإسلام في ثوب نصرانى » .

وابن عربى يعتبر من المفكرين العرب الذين دخلوا ميدان الفكر العالمى ، فإن أهل الغرب أعجبوا به بفضل ما كتب عنه أسين بلاتىوس .

وفي ظروف الفوضى وانعدام الأمان التى عمت بلاد الإسلام جميعًا خلال القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى وما بعده ساد جماهير المسلمين شعور

شامل بالخوف وانعدام الأمان على النفس والمال ، وانتشر الفقر نتيجة لجشع الحكام في أموال الناس ، واشتدت على الناس وطأة الكآبة وخاصة عندما ترامت إليهم أخبار تغلب النصرارى على معظم الأندلس الإسلامى وجرؤ الروم البيزنطيون على بلاد الإسلام فاجتاحوا شمال الشام والجزيرة العراقية ، واستبدت الخوف بجماهير الناس فلم يعد الهروب من الحياة والانخلاع عن الدنيا كافياً لعلاج حالة الضياع التى كانت تتزايد مع السنين ، وهنا برز من صفوف الصوفية رجل فريد فى بابه هو أحمد الرفاعى (٥١٢ - ٥٧٨ هـ / ١٦١٨ - ١٦٨٢ م) وحياته تبدو لنا وكأنها رمز على اتجاه جديد فى تاريخ الحركة الصوفية فى بلاد الإسلام ، فقد ولد بقرية تسمى أم عبيدة من أعمال واسط فى العراق الأوسط ، وهو منسوب إلى جده السابع رفاعه وهو ينتسب إلى جماعة من أشرف الحجاز ، وقد هاجر جده رفاعه من الحجاز إلى المغرب ثم الأندلس وهناك شهد محنة الإسلام الأندلسى ثم عاد إلى مكة وفيها ولد أبو الحسن والد أحمد الرفاعى ومنها هاجر إلى البصرة ثم إلى أم عبيدة حيث والد أحمد بن أبى الحسن الرفاعى ، ونشأ أحمد فى كنف خاله شيخ الطريقة البطائحية فدخل الطريق وأخذ العهد ولبس الخرقة على يد خاله ، والعهد كان عقداً شفوياً بين الشيخ والمريد يتعهد فيه المريد بأن يدخل فى طاعة الشيخ ويتبع طريقته فى العبادات والمجاهدات حتى إذا رأى الشيخ منه جداً فى العبادة واستعداداً للسير فى طريق الصوفية ألبسه الخرقة ، وهى ثوب من قماش غليظ لا يخلعها المريد بعد ذلك ويترقى فى مراتب الصوفية من درجة إلى درجة حتى يصل إلى مشيخة زاوية ، وقد يصل بعد ذلك فى مقامات الصوفية إلى الإمامة ثم القطبية ، وكانوا يقولون: إن عمار الدنيا يقوم على أقطاب يكرمهم الله بالولاية والقدرة على الإتيان بالكرامات أى خوارق الأعمال ويكونون أوتاد الأرض ، وللاقطاب أبدال أى رجال مرشحون لوراثة القطبية إذا مات أحد الأقطاب ، ونشأ أحمد الرفاعى فقيهاً عالماً فلم يقنع بالانتظار حتى يلقي الله فى قلبه العلم كرمأ منه فضلاً فدرس وتفقه وصار يأمر أصحابه بتوقير العلم والعلماء ، ونهى الصوفية عن التبطل والعيش على إحسان الناس ولم يقبل بين مريديه إلا صاحب حرفة يعيش منها ومن لم يكن صاحب حرفة استحثه على تعلم حرفة يعيش منها ، وحفز مريديه على العمل فى خدمة الناس ، والتجمع فى الليل فى زواياهم حيث يقومون بأورادهم وأذكارهم جماعة فانتشرت زوايا الرفاعية وكثر

مريدوها وأصبحت كل زاوية مركزاً لنشاط اجتماعي واسع في خدمة الناس ، واشتهر عنه قوله : طريقى دين بلا بدعة ، وهمة بلا كسل ، وعمل بلا رياء ، وقلب بلا رياء ، ونفس بلا شهوة ، وكان ينفق وقته في خدمة الناس ويقول : « إن تجارتي خدمة النساء والأرامل واليتامى ، وأحب أن أشهد نفسى في خدمتهم دائماً ، وإذا رأيت يتيمًا يبكي تهتز مفاصلى وترتعد أعضائى حناناً له ، وشفقة عليه وأخاف من بكائه » .

obeikandi.com

الفكر العربى يَدْخُلُ العصرَ الحَجَرى

من أوائل القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى ينتاب أهل العلم فى العالم الإسلامى فزع شامل مصدره إحساس عام بأن الدنيا فى انتظار قارعة تكون إنذارًا بقيام الساعة . فالأندلس - درع عالم الإسلام من ناحية الغرب - قد تهدم والطوفان وصل حدود مملكة غرناطة ، وهى فى طريقها إلى الزوال والمد الصليبي الإشباني البرتغالى وصل إلى بلاد المغرب ودولة المرينيين هناك تصدعت ، وانتقلت مسئولية الدفاع عن الغرب الإسلامى إلى جماعات الصوفية المجاهدة التى أشرنا إليها فى الفصل السابق والزوايا المغربية أصبحت حصون الإسلام ، وجماعات الصوفية أصبحوا جنده والطريق يتمهد لقيام أولى دول الشرفاء فى المغرب الأقصى ، وهى دولة السعديين الأشراف الحسينيين وأولهم أبو عبد الله محمد المهدي بن القاسم (٩٥٥ - ٩٦٤ هـ / ١٥٤٨ - ١٥٥٧ م) .

أما على أطراف العالم الإسلامى الشرقية فالصورة أشد قتامةً ، والسحب تتجمع والنذر تتوالى فهناك فى غربى إيران وخراسان وما وراء النهر وطخارستان وغرجستان وهى بلاد الأفغان الحالية كانت الأمور استقرت على وضع قلق ولكنه معقول ، فالبلاد تقاسمها أمراء إقطاعيون يتميزون بصلاح وحرص على الإسلام ، وكانوا جميعاً أتراكاً من جماعات الأوزبك الذين سينتسب إليهم ممالك مصر والشام ، وكانوا أهل سنة فيهم حب للعلم والخير ، وحبهم للعلم حفزهم على الإكثار من إنشاء الرباطات للصوفية المجاهدين ، وكانوا مجاهدين حقاً ، ثم المدارس لتعليم آلهم وأولادهم العربية والقرآن والسنة وكانت تقع بينهم الحروب .

ولكنهم كانوا يتحدون معاً ساعة الخطر وإلى شمالهم - شمالى نهر جيحون - كانت تنزل قبائل الأتراك الخطا ، وكانوا مسلمين وبلادهم كانت غطاء يحمى بلاد الإسلام ، ومن إحدى مدنها وهى فاراب ظهر أبو نصر الفارابى الذى تحدثنا عنه آنفاً .

ولدينا عن أحوال ذلك الطرف الشرقى لبلاد الإسلام معلومات قيمة أتانا بها عالم مسلم من أهل النصف الثانى من القرن السادس وأوائل النصف الأول من القرن

السابع الهجرى هو ياقوت الحموى (٥٧٥ - ٦٢٦ هـ / ١١٧٩ - ١٢٤٩ م) وهو بشخصيته ونشاطه واهتماماته يعتبر رمزاً على أهل العلم في ذلك العصر ، فهو رومى من بلاد الدولة البيزنطية في أسية الصغرى ، أسره المسلمون صغيراً وصار إلى ملكية تاجر من حلب فسماه ياقوتاً وأصبح اسمه ياقوت الرومى الحلبي ، وظهرت منه نجابة فأقبل يدرس العربية والدين والحساب ؛ فأعجب به سيده وأعتقه وجعله شريكاً له في متجره ، ولكن ياقوتاً كان ذا ميل إلى العلم عظيم فمضى يدرس ويقرأ ويلتزم الكتب التهاماً واستعرب الرجل روحاً وإحساساً فسمى نفسه شهاب الدين أبا عبد الله يعقوب ابن عبد الله الحموى ، وانتابه خوف داخل على مصير أمة الإسلام فمضى يجوب بلادها من حدود الهند إلى مصر ، وفي سنة (٦١٥ هـ / ١٢١٨ م) كان في مرو يقرأ في مكتباتها الكثيرة وكان قد شرع في تأليف كتابه الأشهر « معجم البلدان » ، وهناك بلغته أخبار اجتياح جموع المغول شرق الدولة الإسلامية واستيلائهم على سمرقند وبخارى وبلاد ما وراء النهر ، فحمل المسكين كتبه وأوراقه وفر أمام الزحف المغولى حتى وصل إلى حلب ، وهناك لقي كرامة من الوزير ابن القفطى ؛ فاستقر في كنفه ومضى يكمل معجمه ثم نهض مرة أخرى فجاب بلاد الإسلام وعاد إلى حلب فآتم كتابه معجم البلدان ثم أتبعه بمعجم الأدباء وتوفى في (٢٠ رمضان ٦٢٦ هـ / ٢٠ أغسطس ١٢٤٩ م) مخلقاً لنا ذخرين من أجل ما تفخر به مكتبة الحضارة العالمية ، واحد هو معجم أبجدى لكل بلاد الدنيا مع مقدمات ودراسات غاية في القيمة العلمية ، والثانى قاموس أبجدى بأعلام العلم في تاريخ الإسلام ، وقد افتتح الرجل بذلك عصر الموسوعات في تاريخ الفكر العربى ، وما الذى جعل ياقوت الحموى يجتهد هذا الاجتهاد في عمل هذين السجلين العظيمين عن بلاد الإسلام وتاريخها العلمى ؟

السبب فيما أرى كان شعوراً خفياً بأن العاصفة المغولية التى فر أمامها هى القارعة المنذرة بالويلات لأمة الإسلام ، وكانت كارثة الأندلس في ذهن هذا الرجل وهو يكتب ففى كتاباته عن بلاد ما وراء النهر وما كان فيها من عمران إسلامى ثم ما أصابها من التخريب بعد ذلك ، وأسباب ذلك البلاء في ذلك ما يؤكد لنا إحساس هذا الرجل بذلك البلاء القادم وحرصه على أن يترك لنا صورة جغرافية وحضارية لعالم الإسلام قبل قيام الساعة .

فقد كان الرجل كما قلنا في مرو على نهر سيحون عندما أتته أنباء اقتحام المغول بلاد الإسلام فاستمع إليه يصف الناس أى أفراد الأمة ، في بلاد خراسان وما وراء النهر « في أهل هذه البلاد عدل حقيقى وبقية من عدل العمرين وأهلها صالحون وعلى الخير محبوبون » وهو يقول إن « اسبيجاب (شمالى ما وراء النهر) والطالقان ومرو وساوة ، كانت إذ ذاك من أعمار بلاد الله وأنزهها وأوسعها خصباً وشجرًا ومياهًا ورياضًا مزدهرة » (معجم البلدان : ١ / ١٧٩ ، ٤ / ٧ ، ٥ / ١١٤) .

أما حكام البلاد فلا يعجبونه فهم على العادة أهل ظلم وشر ، وهو يقول : إن خراب بلاد كرمان مثلاً (جنوب خراسان) خربت باختلاف الأيدي عليها ، أما بلاد العراق فقد تخربت بسبب مداومة العساكر السلجوقية ومرورهم عليها ونزولهم فيها .. وخلاف السلاطين وقتال بعضهم بعضاً إذ كان كل من ملك لا يحتفل بالعمارة إذ كان غرضه أن يحوصل (يملأ حوصلته) ويطير فجلا عنه أهله واستمر خرابه (ياقوت ١ / ٤٩٦ ، ٤ / ٤٥٤ ، ٥ / ٣٢٥) .

وقد ذكرت لك أن خبر دخول التتار في بلاد الإسلام وصل ياقوت وهو في مرو سنة (٦١٦ هـ / ١٢٢٠ م) وقد أقام فيها ثلاثة أعوام كانت من أجمل فترات عمره لما في أهلها من طيب الخلق وحسن العشرة وهو يقول : إنه فارقها وفيها عشر خزائن للوقف (خزائن كتب أى مكتبات) لم أر مثلها جودة وكثرة وهو يعد فيها أربع مدارس وعدداً عظيماً من الخانقاوات « التكايا » ويضيف أن كتب هذه المكتبات والمدارس والتكايا كانت تعار لمن أراد بدون رهن .

وهذه المدارس والتكايا انتشرت انتشاراً واسعاً في عالم الإسلام كله حتى عد المقرئى من مدارس القاهرة ما يزيد على أربعين كلها تدرس نفس العلوم : الحديث والفقه واللغة ولكل منها أوقاف واسعة وشيخ المدرسة يكون في نفس الوقت ناظر الوقف وهو صاحب التصرف فى أمواله ، فكانت مشيخات المدارس موضع تنافس الشيوخ وتقاتلهم ، ومن هنا فإن كثرة المدارس والمشيخات ونظارات الأوقاف أصبحت ميادين قتال بين العلماء والسلاطين استخدموا تلك الوظائف للسيطرة على العلماء .

وهاتان حقيقتان أحب أن ننتبه إليهما : الأولى أن العلم تجمد وأصبح كتباً مكررة فى نفس الموضوعات تحت عنوانات مختلفة ، والعلماء تحول جهدهم من الطلب الحقيقى

إلى طلب الوظائف ومشیخات الأوقاف ، فقلَّت الكتب الجديدة حتى أصبحت نادرة ، وقل العلماء الصالحون الذين عصمهم الله من فتنة الوظائف وأموال الأوقاف ؛ حتى أصبحوا نواذر ، والسبب في ذلك واضح وهو أن العلم في كل زمان ومكان لا يتقدم إلا في عصور الرخاء والعدل والحرية ، أما مع الظلم والاستبداد فلا يكون علم أو خير أبدًا ، وما دامت حركة الحياة قد بطؤت كما يببطؤ نبض الحيوان نائم الشتاء فقد تجمد العلم أيضًا ولم يصبح العلم فكرًا بل حفظًا ، وكبار علماء العصر السابع الهجري وما بعده أصبحوا يسمون الحفاظ ، وبعضهم كان يحفظ مكتبة كاملة وأنت تذكر بالطبع ما كانوا يحكونه عن أهل الصين القدماء من أنهم كانوا يضعون رجلى البنت في قالب من حديد فيتوقف نمو الرجلين ، فأذكر هنا أن نظم الحكم الجامدة الظالمة كانت قوالب من حديد وضع فيها الفكر العربى فوقف نموه ، وتستطيع أن تقول : إن الفكر العربى كله وضع في فريزر ضخم محافظة عليه من الضياع فجمد حيث وضع وما دام العلم قد أصبح حفظًا واستظهارًا فقد فقد روحه وطلاوته وأصبح الشيوخ - إلا من عصم ربك - نسخًا بعضهم من بعض ، وكل منهم أصبح خزانة كتب متنقلة وكل منهم وقف يرقب الآخر ويحصى عليه خطأ في كلمة أو حديث أو رواية ، فبدأت ظاهرة تستطيع أن تسميها الحرب الأهلية بين العلماء ، واجتهد كل منهم في تجريح غيره وتزكية نفسه لكى يفوز بالمشیخات ووظائف التدريس وأموال الأوقاف ، ومن هنا فإننا نشهد للعلم وأهله من القرن السابع فما بعده منظرًا لا يروق ولا يسعد أبدًا ، وهذا حكم عام وله استثناءات كثيرة مسعدة وأحب أن أبدأ بها هنا حتى لا تضيق نفس القارئ بما ترى من مظاهر حرب العلماء مع بعضهم وتدهورهم في النهاية .

* * *

أقول : إن عصور الحفاظ أو خزائن الكتب الحية هذه لم تخل من نماذج جلييلة جديرة بكل تقدير ، وأبدأ هنا بذكر الشيخ محيى الدين النووى المتوفى سنة (٦٧٦ هـ / ١٢٧٧ م) وهو أحفظ أهل زمانه بلا ريب فقد حفظ القرآن الكريم وتفسير الطبرى وحفظ كتب الحديث الستة الرئيسية البخارى ومسلم ومسنند أحمد وسنن أبى داود

وسنن ابن ماجة وسنن النسائي بشروحها هذا إلى عدد كبير من كتب الفقه والأدب حتى أصبح هذا الشيخ الجليل خزانة كتب متنقلة ، ولكن الذي ميزه عن غيره هو التزامه بواجب العلماء في توجيه أهل الحكم إلى الطريق السوي وشجاعته الباهرة في ذلك الميدان ، وقد عاش الرجل في عصر الظاهر بيبرس ثاني سلاطين المماليك البحرية وهو عصر العلماء الكبار ومشاهير أولياء الله ، وأشهر من ذكره منهم عز الدين بن عبد السلام ، والسيد أحمد البدوي الولي المشهور بمصر ، فكان النووي أشجع العلماء في مواجهة السلطان بيبرس وأجراهم عليه وهو في هذا المجال يفوق عز الدين بن عبد السلام بمراحل ، فقد نطق بالحق عندما سكت عنه عز الدين بن عبد السلام رغم دعواه العريضة في ذلك ، فقد كان ابن عبد السلام شيخاً كثير الدعوة لنفسه يتظاهر بالجرأة في الحق وله في ذلك مواقف كثيرة ولكنه في الحقيقة كان من فقهاء السلطنة ، وقد غطى بدعواه العريضة على شيوخ أجلاء ربما كانوا أعلم منه وأتقى وأشجع ، وأكبر الامثلة على ذلك الفقيه المصري تقي الدين بن دقيق العيد فقد ضايقه عز الدين بن عبد السلام وزاحمه في بلده مصر ، ووجد ابن دقيق العيد الفقيه الجليل أن يترك الميدان لابن عبد السلام ويلزم بلده قوص .

وقد كان الظاهر بيبرس رغم اتساع ملكه في حاجة دائمة إلى المال ؛ لأنه كان يكثر من شراء غلمان الأتراك لكي يستعين بهم في حروبه ضد بقايا الصليبيين ، ولكي ينشئ لنفسه عزوة وقوة عسكرية خاصة به ، وكان لهذا يشتد على الناس في جمع الأموال ، وكان عز الدين بن عبد السلام يقر الظاهر بيبرس على الكثير من ذلك ، أما النووي فكان لا يتردد في الكتابة إلى السلطان دافعاً عن الناس ، وقد احتفظ لنا السيوطي في كتاب « حسن المحاضرة » بالكثير من نصوص تلك الخطابات ، وتقرأ في أحدها أن السلطان بيبرس عندما اشتط في فرض الجبايات على أهل الشام كتب إليه الإمام النووي يقول : « إن أهل الشام من هذه السنة في ضيق وضعف حال بسبب قلة الأمطار وغلاء الأسعار وقلبة الغلات والنبات وهلاك المواشى وأنتم تعلمون أنه تجب الشفقة على الرعية ، ونصيحتي (أي نصيحة السلطان) في مصلحته ومصلحتهم (مصلحة الرعية) » .

وقد غضب الظاهر بيبرس من كلام النووي واستنكره ، فهاجم العلماء وغيرهم بسكوتهم عن نصيحة طغاة التتار عندما كانوا سادة شمال الشام ، وأخذ يهدد العلماء

بالعقاب إذا هم لم يكفوا عن الاعتراض عليه ، فيكتب إليه النووى يقول : وأما ما ذكر في الجواب (جواب السلطان) أننا لم ننكر على الكفار كيف كانوا في البلاد ، فكيف يقاس ملوك الإسلام وأهل الإيمان وأهل القرآن بطغاة الكفار ، وبأى شىء كنا نذكر طغاة الكفار وهم لا يعتقدون شيئاً من ديننا ؟ .. وأما أنا في نفسي فلا يضرني التهديد ولا يمنعنى ذلك من نصيحة السلطان ، فإنى أعتقد أن هذا واجب على وعلى غيرى وما ترتب على الواجب فهو خير وزيادة عند الله وأقوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد ، وقد أمرنا رسول الله ﷺ أن نقول الحق حيثما كنا وألا نخاف في الله لومة لائم ونحن نحب السلطان في كل حال وما ينفعه في آخرته وديناه .

وقد أراد السلطان بيبرس أن يجرح النووى ويضطره إلى الموافقة على الضرائب المجحفة فجمع العلماء جميعاً وجعلهم يوقعون بالموافقة بما فيهم عز الدين بن عبد السلام ، ثم استدعى محبى الدين النووى ليوقع فرفض وقال له : أنا أعرف أنك كنت في الرق للأمر بندقار وليس لك مال وقد من الله عليك وجعلك ملكاً وسمعت أن عندك ألف مملوك كل مملوك له حياصة (ثوب موسى بالذهب) من ذهب وعندك مائة جارية لكل جارية حق (بضم القاف) من الحلى فإن أنفقت ذلك كله وبقيت ممالك بالبنود والصوف بدلاً من الحوائص وبقية الجوارى بثيابهن دون الحلى أفتيتك بأخذ المال من الرعية فغضب الظاهر وقال : أخرج من بلدى (دمشق) فقال : السمع والطاعة وخرج إلى قريته نوى . فقال الفقهاء : إن هذا من كبار فقهاءنا وصلحائنا وممن يقتدى به فأعده إلى دمشق فرسم برجوعه ، فامتنع الشيخ وقال : لا أدخلها والظاهر بها ، فمات الظاهر بعد شهر .

وهذه الحكاية تدحض القصة التي لا يصدقها العقل والتي يرويها السيوطى في حسن المحاضرة عن أن عز الدين بن عبد السلام أفتى بضرورة بيع الممالك بما فيهم السلطان ؛ لأنهم ملك الأمة والحقيقة أن عز الدين بن عبد السلام كان مع فقهه وعلمه من فقهاء السلطان وكان في أكثر أمره يوافق السلاطين على ما يريدون ، ولكنه كان يستبسل مع رجال السلطان وكان السلطان لا ينكر أن يهان بعض رجاله أمام الناس حتى تنكسر نفوسهم ، بل إن عز الدين بن عبد السلام كان قبل ذلك يوافق سيف الدين قطز على ما يريد من فرض الضرائب على الناس للاستعانة بالمال على حرب التتار والفرنج ، وكان السلطان سيف الدين قطز أول سلاطين الممالك بعد الأيوبيين محبباً

إلى الشيوخ والناس لإخلاصه في جهاد التتار في حين أن المماليك البحرية ورأسهم بيبرس البندقدارى كانوا يدبرون للقضاء عليه للاستيلاء على السلطنة ، وعندما خرج قطز لحرب التتار عند عين جالوت كان رأى بيبرس وأصحابه أن ينسحبوا إلى مصر أمام التتار ، ولكن متطوعة المصريين وأهل الشام كانوا قد دخلوا المعركة وبدأ التتار يجتاحونهم بالخييل والسيوف ، فنادى قطز المماليك ودعاهم إلى دخول المعركة فلم يسمعوا له فغضب وخلع عمامته ورمى بها إلى الأرض وهدد المماليك بالعقاب ، ودخل المعركة فأخرج المماليك البحرية واضطروا إلى دخول المعركة وانتصر المسلمون مع سلطانهم قطز ، وخاف بيبرس والمماليك البحرية من انتقام السلطان فقتلوه في بلبيس وأعلن بيبرس نفسه سلطاناً ولهذا نفر منه أهل مصر وصانعه الشيوخ ومنهم عز الدين ابن عبد السلام ، أما الشيخ النووى فلم يرهب بيبرس وظل على موقفه منه ، وأراد بيبرس أن ينتقم من الناس فأسرف في فرض الضرائب فكان الشيخ النووى هو الذى وقف له ، وأراد بيبرس أن ينزع ملكية أراضي الزراعة من الناس بحجة أنها ملك لبيت المال ، فأقره على ذلك عز الدين بن عبد السلام الذى يقول السيوطى إنه أفتى ببيع السلطان نفسه ، ولكن النووى اعترض على ذلك وقال : إن ذلك أمر لا يحله أحد من علماء المسلمين . وظل ثابتاً في موقفه حتى تراجع السلطان عن رأيه .

وليس معنى ذلك أن عز الدين بن عبد السلام لم يكن من أعلام شيوخ القرن الثامن الهجرى ، فقد كان فعلاً شيخاً جليلاً ولكنه كان ذا دعوى عريضة وجمع كبير مثله في ذلك مثل الشيخ رشيد رضا في العصر الحديث ، فقد كان الشيخ رشيد رضا من تلاميذ الشيخ محمد عبده ، وكان يقول برأى شيخه في ضرورة العناية بالارتقاء بالناس وتعليمهم وتحاشى الدخول في خدمة أهل السلطان ، ويرى أن تلك هى الخطوة الأولى للنهوض بأمم الإسلام ، ومحمد عبده الذى كان فلاحاً مصرياً مثله في ذلك مثل الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد ظل على مذهبه إلى آخر حياته ، أما رشيد رضا فلم تكذب تلوح له فرصة الوزارة حتى ينسى مبدأه ويسرع إلى دمشق ليكون وزيراً في الوزارة التى ألفها فيصل بن الحسين بن على عندما توج نفسه ملكاً في دمشق ، وعندما عصف الفرنسيون بمملكة فيصل الشامية وتبناه الإنجليز وجعلوه ملكاً على العراق أسرع الشيخ رشيد ودخل في خدمة الملك عبد العزيز آل سعود في نجد وصار من جملة وزرائه .

وفيسما عدا النووى وابن تيمية فيما بعد فإننا نجد أنفسنا أمام علماء هم مكتبات متنقلة كلهم حفاظ يحمل الواحد منهم حمل مكتبة في رأسه ، ولكنه عاجز عن أن يأتى بفكرة ذات بال ؛ لأن الفكر العربى والإسلامى كله كان قد دخل في العصر الثلجى وجفّت شجرته وأصبح من ذلك الحين إلى مطالع العصر الحديث تراثاً ماضياً لا نبض فيه ولا حياة ، وإن كان ذا قيمة عظيمة .

وحالة الكوما هذه التى دخل فيها الفكر العربى هى التى جعلت شيوخه يهتمون بالماضى وحده ، كأن أمة الإسلام قد جمدت مكانها ولم يعد لها مستقبل ، والحق أن أهل العلم في ذلك العصر من القرن السابع الهجرى - الثالث عشر الميلادى أجادوا وأبدعوا في خدمة الماضى ، وقد اتجهت همهم نحو أربعة أنواع من النشاط الفكرى :

- الشروح والتعليقات والإضافات إلى كتب ماضية .

- التاريخ : فهذا عصر كبار المؤرخين وأصحاب الحوليات .

- الموسوعات : فهذا عصر الموسوعيين وأولهم ياقوت الذى بدأنا به هذا الفصل ثم القلقشندى صاحب « صبح الأعشى » وابن فضل الله العمري صاحب « مسالك الأبصار » والنويرى صاحب « نهاية الأرب » .

- التراجم : فهذا عصر ابن حجر العسقلانى والسخاوى وابن عساكر ، فأما عن الشروح والتعليقات فهى تنفعنا فيما نلتمس من العلم بأصحاب التفاسير والمحدثين ولكننا لن نفيد منها شيئاً ينفعنا في حاضر أو مستقبل ؛ لأن شروح البخارى مثلاً مثل عمدة القارى وفتح البارى عبارة عن نقول من كتب الماضين وآراء لبعض المعاصرين وكل ما تقرأ فيها عبارة عن نقول يأخذها شيوخ عن شيوخ وحتى في حل المشاكل الراهنة لهم التى كانوا يستفتون فيها كانوا لا يحاولون قط إدخال الحاضر في حسابهم ، كأن الزمان قد تحجر عند السلف ووقف ، وفتاوى الحسن البصرى وابن سيرين تؤخذ كما هى وتطبق على مشاكل القرن الثامن الهجرى وما بعده وعندنا كتاب ضخيم يقع في أحد عشر جزءاً من القطع الكبير يسمى نوازل الوثنريسي وهو عالم من أهل المغرب من أهل القرن التاسع الهجرى والنوازل يراد بها القضايا ، وهو يعرضها ويقدم لنا آراء العلماء فيها فتتعجب كيف أن هذا الرجل يعيش في الماضى بكل كيانه فهو لا يعرف إلا آراء الماضين ، بل هو نفسه يلغى نفسه فلا يذكر رأياً خاصاً به .

وهذه المؤلفات المتأخرة في الفقه والتفسير والحديث وشروحه تزيد في ضخامة المكتبة العربية ولكنها لا تقدم لنا شعاعاً جديداً من نور ، وأمثال هذه الكتب سهلة التأليف فإنها نقول بوضع بعضها إلى جوار بعض ، وربما وجدنا فيها فقرات من كتب قيمة ضاعت الآن كما هو الحال في تاريخ ابن كثير المسمى بالبداية والنهاية وهو كتاب جليل ولكن صاحبه كان يرى أن التاريخ قد انتهى وتوقف عند السلف الصالح ، فالبداية عنده هي العصر النبوي والنهاية هي القرن الخامس الهجري مثلاً ، وفي هذا التيار تسقط من الحساب كل المؤلفات في علوم المعاش كالطب والهندسة والصيدلة والجغرافية ، فلا نجد منها شيئاً جديداً ، بل ينحط مستوى العلم ومكان كتاب الشفا لابن سينا نجد « تذكرة داود » ، ومحل الإدريسي نجد ابن الوردى ، ومحل كتاب « الحيوان » للجاحظ نجد كتاب « حياة الحيوان » للدميري ، وكل هذه مؤلفات تقيض بأحاديث الخرافة والأوهام ، بل يعود الناس إلى القول بأن الأرض مسطحة وأنها محمولة على قرن ثور وينسى الناس جميعاً ما أجهد الإدريسي والبيروني وأمثالهم أنفسهم فيه من البرهنة على كروية الأرض .

وأما الموسوعات فربما كانت خير ما خلفه لنا عصر الجليد هذا وهي في مجموعها كتب ألفها رجال ممن كانوا يعملون في دواوين الإنشاء أى سكرتاريات الدول ، وهم يؤلفونها لأمثالهم فيقدمون فيها خلاصة للمعلومات التي ينبغي أن يحوزها الإنسان ليكون كاتباً محترماً في دواوين السلاطين ، وهذا النوع من التأليف بدأ في تونس على يد رجل ممن كانوا يخدمون في ديوان الإنشاء عند الحفصيين وهو أبو الفضل أحمد بن يوسف التيفاشي المتوفى سنة (٦٥١ هـ / ١٢٥٢ م) ، وقد ألف موسوعة لاستخدام رجال ديوان الإنشاء جعل عنوانها « فصل الخطاب في مدارك الحواس الخمس لأولى الألباب » ولم نعثر على الكتاب كاملاً ولكننا عثرنا على فصول منه اعتبرت كتباً قائمة بذواتها مثل أزهار الأفكار في منافع الأحجار وموضوعه المعادن ، ونزهة الألباب مما لا يوجد في كتاب وموضوعه الأدب ، وقد اطلع على هذه الموسوعة أبو الحسن علي بن سعيد المغربي (٦٠٥ - ٦٨٥ هـ / ١٢٠٨ - ١٢٨٦ م) وهو موسوعي أندلسي غادر بلاده الأندلس سنة (٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ - ١٢٤١ م) ومضى يذرع بلاد الإسلام حاملاً علماً غزيراً عن الأندلس حمله معه إلى المشرق ومضى يطوف به على عواصم الإسلام ، يعيش منه ويزهى به ، وقد خلف لنا ذخيرة ضخمة من الكتب تعتبر من أهم

ما نعتمد عليه في التاريخ الفكري للأندلس ، وفي مروره بتونس أراد أن يستقر فيها ولكن قريباً له خاف منه فلم يزل حتى أخرجه إلى المشرق ، ولكن على بن سعيد اطلع هناك على موسوعة التيفاشى وربما يكون قد نقل منها كتاباً كاملاً من كتبه في الجغرافيا وهو بسط الأرض في طولها والعرض .

ولكن الموسوعيين المشرقيين لم يظهروا في مصر والشام إلا بعد قرن من الزمان فإن النويرى صاحب نهاية الأرب توفى سنة (٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م) ، وابن فضل الله العمرى صاحب مسالك الأبصار توفى سنة (٧٤٨ هـ / ١٣٤٨ م) ، والقلقشندى توفى سنة (٨٢١ هـ / ١٤١٨ م) ، وهذه الموسوعات بين أيدي الناس فلا حاجة لى إلى الكلام عنها في هذا الموجز فليس فيها فكر جديد حى ، إنما هى صناديق من المعلومات المجمدة ، وعندما نقوم نحن اليوم بتحقيقها ونشرها فإننا نسمى هذا العمل إحياء التراث أى إخراجها من التلاجة وإدخاله غرفة الإنعاش .

وهذا العصر هو عصر مشاهير المؤرخين المتأخرين ، ابن خلدون والمقرىزى وابن تغرى بردى وابن حجر العسقلانى والسخاوى .

فأما ابن خلدون فقد تحدثنا عنه فيما مضى ، وأما مؤرخو العصور المتأخرة وعلى رأسهم تقى الدين المقرىزى فجماعون يأخذ بعضهم من بعض ويضيف إلى سجل التاريخ ذكر الحوادث إلى أيامه ، وأعظم أولئك المؤرخين مكاناً تقى الدين المقرىزى المتوفى (٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م) ، وهو مؤرخ موسوعى فعلاً خَلَّفَ لنا ثروة عظيمة القيمة من المؤلفات في التاريخ مثل « السلوك لمعرفة دول الملوك » ، وهو تاريخ عالمى مرتب على السنين وأهميته ترجع إلى ما كتب عن عصره وهو عصر المماليك وهو تلميذ ابن خلدون ، ولكن أثر ابن خلدون عنده لا يظهر إلا في كتاب صغير من كتبه يسمى « إغاثة الأمة بكشف الغمة » وهو تاريخ اقتصادى اجتماعى لمصر والشام ، وهو من هذه الناحية فريد فى بابهِ ، وللمقرىزى كتاب « الخطط » وهو وصف دقيق موسع لبلاد مصر وخاصة القاهرة مع تاريخ عام لمصر ووصف قيّم للمجتمع المصرى فى عصره .

ويلى المقرىزى فى سجل المؤرخين أبو المحاسن يوسف بن تغرى بردى وهو تلميذه وهو أمير المؤرخين المصريين أدباً وذوقاً ، وإن لم يكن أوسعهم علماً ، وهو من بيت كبير إذ إنه ينحدر من بيت مملوكى ، ولهذا فإن معاصره ابن حجر العسقلانى يعيره دائماً

بأنه تركى ويقول : وماذا يجىء من تركى ؟ ولكن أبا المحاسن وهب نفسه للتاريخ وأصبح مؤرخ عصره يسجل الحوادث يوماً بعد يوم حتى إنه كان إذا بارح مصر كلف رجلاً آخر بأن يسجل الحوادث مكانه .

ثم نأتى بعد ذلك إلى كبار أصحاب كتب التراجم وعلى رأسهم محمد بن عبد الرحمن السخاوى (٨٢١ - ٩٠٢ هـ / ١٤٢٨ - ١٤٩٦ م) ، وهو واسطة عقد أصحاب كتب التراجم وكان رجلاً واسع العلم بصورة لا تصدق فقد حوى صدره من العلم ما لم يحويه صدر عالم آخر ربما فى التاريخ ، وهو تلميذ ابن حجر العسقلانى المتوفى سنة (٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ م) ، وبدر الدين محمود بن أحمد العينى (ت ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م) ، وأستاذ جلال الدين السيوطى المتوفى (٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) .

والقيمة العلمية التاريخية لهؤلاء المؤرخين وأصحاب التراجم لا تحتاج إلى بيان ولكن الذى يحتاج منا إلى وقفة هنا هو موقف معظم أولئك الأعلام بعضهم من بعض واتجاههم إلى التجريح والشتم وتتبع معائب بعضهم بعضاً مما يضىء على صورة العلماء فى ذلك العصر ظلالاً قاتمة ، فهم لم يغادروا أحداً إلا جرحوه ، والمثال المعروف لهذا العدوان كان ابن حجر فهو لم يدع عالماً إلا ناله بلسانه وورث عنه هذه الخصلة الذميمة تلميذه شمس الدين السخاوى ، ويكفى أن أذكر لك هنا ما قاله فى ابن خلدون من أنه يتبسط بالسكنى على البحر وأكثر من سماع المطربات ومعاشره الأحداث ، وتزوج بامرأة لها أخ أمرد ينسب إلى التخليط فكثرت الشناعة عليه (الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع ٤ / ١٤٥ ترجمة رقم ٢٨٧) ، فإذا كان هذا قوله فى ابن خلدون فتصور ما قاله فى غيره وهو كثير جداً ومعيب جداً ، وهو قطعاً يشين السخاوى ؛ لأن معظم هذا العدوان كان ناشئاً عن التنافس على مشيخات المدارس وأوقافها .

ولكن الطامة الكبرى فى عدوان العلماء بعضهم على بعض تتجلى لنا فى كتاب شائن ألفه جلال الدين السيوطى فى ذم شيخه السخاوى وسماه « الكاوى فى تاريخ السخاوى » ، وقد صاغه السيوطى فى صورة مقامة بذئبة اللفظ اعتدى فيها على شيخه فأخرجه من جملة العلماء أصلاً ، بل لم يستح من أن يعتدى على شرف الرجل ، والسبب الحقيقى فى ذلك العدوان هو التنافس على وظائف التدريس وما فيها من الأوقاف ، ولعن

الله الحرص فقد أذل أعناق الرجال ، وما رأيك في رجل يقول في شيخه وأستاذه وهو على ذلك حقير نقير لا يباع في سوق العلم بقطمير ، ولا ينسبه في الأنساب عال ، ولا حسبه إذا قومت الأحساب غال ، ولا يزداد إلا جهلاً على كر الأيام والليالي .

فهل فهمت الآن لماذا جعلت عنوان هذا الفصل الفكر العربي في العصر الحجري ؟

* * *